الإمام المتمرد ابن حزم الأندلسي

إعداد

أيمن محمد صادق زيدان

باحث مصري

" أنا أتبع الحقَّ وأجتهد، ولا أتقيَّد بمذهبٍ".

ابن حـــزم الأندلسي

الملخص:

لم يكن ابن حزم الأندلسي (384هـ - 356هـ) مجرد مفكر موسوعي، أينما ضرب الباحثون بسهم في علم انتصب أمامهم إمامًا لهذا العلم، بل كان مرآة صادقة لعصر أعتركت فيه الفتن،

والصراعات بين حضارات متباينة، "لم يكن عصر ابن حزم فيه ذلك الالتقاء الفكري بين الفرنجة والإسلام، بل كان فيه التقاء من نوع آخر . فيه التقاء بين الفكر الإسلامي في المشرق وآداب المسلمين وفنونهم في بغداد وما حولها. وبين الفكر الإسلامي في الغرب وآداب المسلمين وفنونهم في الأندلس."([1])، وإذا كان العلماء والمبدعون و المفكرون، من أكثر الشرائح الإنسانية اندماجًا مع مفردات عصرهم ومعطياته، ومن أكثرهم تأثرًا بهذه المعطيات وتفاعلًا معها، فكلما توهَّج الفكر والإبداع كان انتصاره وهضمه لهذه المعطيات التي تسري في دمائه، وتسهم في بنائه، فتتجلى في طرحه وعطائه، وعلاقة ابن حزم بعصره علاقة جدلية على مستوى العطاء وتنوعه، وهو ذو كيميائية فكرية نشطة، ورؤى قادرة على الإحاطة بمفردات عصره وقضاياه، ومن ثم تعددت رؤاه الفكرية والثقافية بين الفلسفة والمنطق والتاريخ والأنساب واللغة والأدب وعلم النفس ومقارنة الأديان، بالإضافة إلى ما تأمَّم به من فقه وحديث، وهو غير ذلك كان ذو وجه سياسي فقد نشأ في بيت الوزارة، وكان له فيها شأن، وهو ما جعله مرمى لحقد علماء عصره وفقهائه، ولم يسلم من حقدهم نسبه بالطعن ولا مذهبه بالمحاربة ولا كتبه بالحرق، وقال في ذلك:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل إذ أثوي ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

([1]) ابن حزم حياته وعصره، الإمام محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م، ص15

وإلا فعـــودوا فـــي المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ســتر

وهو في كلٍّ مناضل ومنافح، ومجادل في ضرراوة حتى قيل "لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان

Abstract:

Ibn Hazm al-Andalusi (384 AH - 456 AH) was not merely an encyclopedic thinker; rather, wherever researchers aimed their arrows in any field of knowledge, he stood as a leader in that domain. He was a true mirror of an era rife with tumult and conflicts between diverse civilizations. His era was not just a time of intellectual encounter between the Franks and Islam, but rather a different kind of encounter. It was a meeting point between Islamic thought in the East and the culture and arts of Muslims in Baghdad and its surroundings, as well as between Islamic thought in the West and the culture and arts of Muslims in Al-Andalus.

Like many scholars and innovators, Ibn Hazm was deeply integrated with the vocabulary and data of his era. His engagement and interaction with these elements were profound. His relationship with his era was dialectical in terms of contribution and diversity. He possessed an active intellectual chemistry and insights capable of encompassing the vocabulary and issues of his time.

His intellectual and cultural perspectives ranged from philosophy, logic, history, genealogy, language, literature, psychology, and comparative religion, in addition to jurisprudence and hadith. Despite his political background and involvement in the ministry, he was a target for the animosity of the scholars and jurists of his time. His works were subjected to criticism and attempts to disgrace and silence him.

Nevertheless, his creativity and advocacy were as intense as it was said: "The tongue of Ibn Hazm and the sword of Al-Hajjaj are siblings." He was always a fighter

and an advocate for what he believed in. His ideas and innovations reflected the challenges and conflicts of his time.

مقدمة:

استطاع ابن حزم أن يكون علامة فارقة في تاريخ الفكر الأندلسي بوجه خاص والفكر العربي والإسلامي بوجه عام. ولا نبالغ إذا قلنا: علامة فارقة في تاريخ الفكر الإنساني. وإذا أنصف البحث والتدقيق لأقرّا له بالسبق في كثير من علوم عصرنا الحديث، ولأفكاره بالصدارة التي قرصنها الغرب، وصدّرها إلينا مشفوعة بريادتهم الكاذبة زورًا وبهتانًا.

وينتصب كتابه "الفصل في الملل والنحل" دليلًا دامغًا، وشاهدًا شامخًا وجليًّا على تأسيسه لعلم مقارنة الأديان الذي انتحلته أوروبا بغير حق، كذلك اقتات على مائدته مفكرو العرب الذين شهد لهم الفكر والتاريخ؛ "وإذا ذكرتم سَبْقَ ابن حزم لابن خلدون بنحو (٣٥٠) سنة، وأن ابن خلدون قرأ مصنفات ابن حزم، وكانت رائجة في المغرب منذ عهد الموحدين، وأنه يعزو إليها أحيانًا، رأيتم أن الفضل الذي يُنتسب لابن خلدون في تأسيسه علمَ الاجتماع يجب ردُّ شيءٍ منه ولو ضئيلًا إلى ابن حزم.

وله فيما نسميه الآن (اللغة الكاملة) رأيٌ سديدٌ سبق إليه، ويتمنّى تحقيقه اليوم أصحاب كل لغة للغتهم؛ فبعد أن قرر أن "اللغة كلُّها حقيقة وذات أوضاع صحاح، وعبارات عن المعاني"، قال: "ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى في العالم اسم مختص به، لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك، وأقرب للبيان" ليت ذلك كان، فحقق أمنية عالمنا القرطبي قبل تسعمائة عام، وأمنيات علماء اللغة إلى اليوم"[1].

وبذا سمقت قامته بين العلماء والمفكرين، وكان جديرًا بأن تشرئب إليه أعناق المنصفين منهم إجلالًا وتبجيلًا، معارضين ومؤيدين، مختلفين معه لا عليه.

اسمه ونسبه:

هو "الإمام الأوحد، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد، عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسيّ الأصل ثم الأندلسي، القرطبي، اليزيديُّ، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي رضى الله عنه، المعروف بيزيد الخير، نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق، الفقيه

(1) الأفغاني، الإمام ابن حزم الأندلسي (لمحات من سيرته، وأضواء على عبقريته)، ص 204، 205.

الحافظ، المتكلم الأديب، الوزير الظاهري، صاحب التصانيف، وكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية. وكان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، المعروف بالداخل"[1].

ولم يسلم هذا النسب من الطعن، والاختلاف حوله قديمًا وحديثًا؛ فقديمًا قال حيان بن خلف أبو مروان القرطبي: "وكان من غرائبه انتماؤه إلى فارس واتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر تولَّى فيها أبوه أحمد بن سعيد لبني أمية، لا عن صحة ولاية لهم عليه، فقد عهده الناس خامل الأبوة، مولد الأرومة، من عجم (لبلة)، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام، لم يتقدم لسلفه نباهة، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه، ولم يشذ أحد من الذين أرخوه فيما علمنا عن رفع عمود نسبه إلى يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان"[2].

ويتضح من كلام حيان بن خلف بجلاء حنقه على ابن حزم، ورغبته في النيل منه من أي جانب يستطيعه؛ فإن كان عصيًّا عليه علمه وقدره، فتصور أنه ربما لان له نسبه وأصله، فجاءت ترجمته له أقرب إلى السب تفوح منها غيرة تزكم العقول والمنطق.

ويرى الإمام محمد أبو زهرة أن ذلك تشنيع من علماء وفقهاء عصره عليه؛ ربما كان سببه استطالته بفضل القول عليهم وحدته في الجدل وحجته التي لا ترد، أو مخالفته لمذهبهم المالكي، والإتيان بفقه لم يألفوه ومنهاج لم يعرفوه، وربما كان هناك سبب آخر وهو تساميه عليهم بما أنعم الله عليه من بسطة في الرزق وسعة في العيش.. والنفس لا تحب من يتسامى عليها"[3].

في حين يتساءل الناصر الكتاني عما أورده حيان بن خلف: "من أين أتى به ابن حيان ولم يتقدمه أحد فيما علمناه، أيكون ابن حيان غير ثقة فيما ينقل أم يكون خصمًا من خصوم ابن حزم، والمعاصرة حجاب كما يقول علماء النفس من الصوفية"[4] .

ولا يرى الكتاني سببًا يدعو ابن حزم إلى التكثّر بانتمائه لفارس، وهو الذي يرى أن روح العصبية الفارسيَّة هي مصدر المذاهب الضارة كلها في الإسلام، كما أنه روى في

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1417هـ/ 1997م، الترجمة رقم: 4172، 540/13.

(2) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب ليبيا/ تونس، 1981م، 168/1.

(3) الإمام محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م، ص5،6.

(4) الناصر الكتاني، ابن حزم الإسباني أو الفارسي، مجلة اللسان العربي، الرباط، العدد الرابع، 1964م.

البخاري عن أبي ذر أنه سمع النبي - صلَّى الله عليه وسلم - يقول: "ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى قومًا ليس فيهم نسب فليتبوَّأ مقعده من النار"[1].

أما الاختلاف على نسبه حديثًا، فقد رأى المستشرق الهولندي "دوزي" أول من اكتشف مخطوطة (طوق الحمامة) عام 1841م: "أن هذا الشاعر الأكثر عفة، وأكاد أقول الأكثر مسيحية من الشعراء المسلمين، ليس عربيًّا خالص النسب، وإنما هو حفيد إسباني مسيحي"[2] .

وذلك بعدما لمس الرومانسية العالية، والعاطفة السامية في حكاية ابن حزم عن جاريته (نُعم) التي رواها في الطوق. وهو ما يتعارض مع ذائقة العرب في ذلك وطبائعهم مع المرأة التي يفضلونها مثيرة وحسية، وكأنما العفة والرومانسية قد استأثرت بهما المسيحية عن سائر الأديان والأجناس.

وقد اعتمد الباحثون الإسبان على وجهة نظر "دوزى"، وعدوا الملامح النفسيَّة التي ينسبها مترجمو ابن حزم إليه "تؤكد إسبانيته في عمق الشموخ والعاطفة، وطلاقة اللسان، واستقامة الكلمة، والوفاء وتحليق الروح نحو الله، والقسوة في نقد الوطن، وحب الحقيقة والحماسة التي تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعًا عن أفكاره وشرفه، وكراهية النفاق، والصلابة في الشدائد، كلها صفات إسبانية عريقة تؤكد في وضوح صدق ما قاله ابن حيان و ابن سعيد عن أصوله الإسبانية وعن جدوده المسيحيين"[3].

ولا شك أن هذه النظرة تعرت عن الموضوعيَّة والحياديَّة، واكتست بالتعالي وروح التعصب المقيت، وكأنهم وهم يلصقون بالإسبانية - وهم يعنون بها المسيحية في المقام الأول - كل هذه المعاني الرفيعة، والصفات السامية والراقية، يمعنون في أن يجرِّدوا منها العربي/ المسلم، وتجاهلوا عن عمدٍ أن كلَّ ما عدده هو بعض من قيم ومبادئ إسلامية أصيلة، وهم يفعلون ذلك ربما انتصارًا لذات رأت في العربي المسلم مستعمرًا وغازيًا. وهو ما يجب أن تتجرد منه روح العلم والموضوعية.

وقد عارض "ميغيل أسين بلاثيوس"، وهو أسقف وباحث إسباني نظرية دوزي التي اعتمدت على خصائص الجنس البعيد لابن حزم، والذي كان متأثرًا بما كان شائعًا في أيامه، من أن السمو في الحب وليد المسيحية، فطبق ذلك على طوق الحمامة لابن حزم،

---

(1) المصدر السابق.

(2) جهاد فاضل، عروبة ابن حزم، العربي، العدد 673، ديسمبر 2014م.

(3) السابق نفسه.

وعلل ذلك بأن (نُعم) لم تكن الحب الوحيد في حياة ابن حزم؛ إذ خفق قلبه مراتٍ ومراتٍ كان فيها ابن حزم إنسانًا لا مثاليًّا ولا أفلاطونيًّا، ولا عذرية فيه، أي أنه لم يكن إسبانيًّا على النحو الذي رسمه باحثو الإسبان، وعلى العكس من ذلك فقد رأى "بلاثيوس" أن العذرية صناعة عربية"[1].

وفي كتابه "ابن حزم صورة أندلسية" يرى الدكتور طه الحاجري: "أنه من أهل إسبانيا الغربية من أسرة كانت تقيم في (لبلة) وكانت تدين بالنصرانية، وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامي أمدًا غير قصير، حتى اعتنق حزم الإسلام في منتصف القرن الثالث الهجري، ويضيف أن اسم حزم كان أكثر شيوعًا في الأندلس منه في المشرق، كما يلاحظ في هذا الإقليم الذي خرجت منه أسرة ابن حزم، وأن حاكم لشبونة فيه كان اسمه في وقت غزو النورمانديين أي سنة 229هـ وهب الله بن حزم "[2]. وإلى هذا ذهب المستشرق الإسباني "غرسيه غومس"؛ فقال عن ابن حزم أنه كان إسبانيًّا خالصًا[3].

ويرد الناصر الكتاني على ذلك بأن "شيوع اسم حزم في الأندلس ليس دليلًا على إسبانيته، وخاصة أن من الصحابة والتابعين وتابعيهم من كانت أسماؤهم وأسماء آبائهم وأجدادهم حزمًا"[4]. ولا يستطيع الدكتور الطاهر أحمد مكي أن يجزم بأصول أسرة ابن حزم؛ حيث يرى أنها من الأجناس التي وجدها المسلمون لحظة الفتح، ولا يعرف على وجه التأكيد؛ هل هي لاتينية، أو قوطية، أو من بقية الأجناس التي مرت بشبه الجزيرة من الأفارقة والفينيقيين؟ كذلك لا يمكن الجزم بالديانة التي كان عليها أسلافه؛ أهي الكاثوليكية، أم ديانات أخرى، أو الوثنية؟

"وخارج عن العلمية طبعًا أن يقال أنه كان إسبانيًّا بالمعنى العلمي أو القومي للمصطلح في عصرنا الحديث، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بها في أشد الاحتمالات إلى أبعد من أخريات القرن الثالث عشر، وليس للأسرة تاريخ عريق في الإسلام"[5].

ويميل الباحث إلى الترجمات التي تثبت أصله الفارسي؛ ذلك أن من نفى ذلك أو

---

(1) السابق نفسه

(2) الناصر الكتاني، ابن حزم الإسباني أو الفارسي، نقلًا عن الدكتور طه الحاجري: كتاب "ابن حزم صورة أندلسية"، ص17.

(3) السابق نفسه.

(4) د. الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط/4، دار المعارف، 1993م، ص63، 64.

(5) المرجع السابق.

شكك فيه أو رأى غيره، اعتمد في رأيه على اجتهادات ظنيَّة واحتمالات تتكئ على معطيات قابلة للطعن[1]، أو صدرت عمن لم يسلم صدره من غلٍّ وحسدٍ وغيرة، ولم تصفُ نيته من تشنيع وطعن ومكيدة[2].

ويطمئن إلى ما أثبته الحميدي في جذوة المقتبس؛ والحميدي من أخصّ تلاميذ ابن حزم وألصقهم به و أقربهم إليه، وهو أعرف من ترجموا به، وقد روى عنه ونقل ونافح ولا يستساغ أن يخطئ في نسب أستاذه، أو يدَّعي عليه ما ليس بحق، وهو عندنا من الثقات العدول؛ فقد حدَّث "عن: إبراهيم بن سعد، وفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة، فأكثر عنه وجوَّد، وعبد العزيز بن عبدالصمد العمي، وعبدالعزيز بن أبي حازم، والوليد بن مسلم، ومروان بن معاوية، ووكيع، والشافعي، وليس هو بالمكثر، ولكن له جلالة في الإسلام. قال أحمد بن حنبل: الحميدي عندنا إمام. وقال أبو حاتم: أثبت الناس في ابن عيينة الحميدي، وهو رئيس أصحاب ابن عيينة، وهو ثقة إمام.

قال الحميدي: جالست سفيان بن عيينة تسع عشرة سنة أو نحوها.

وقال يعقوب الفسوي: حدثنا الحميدي، وما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه"[3].

ومن كانت هذه شيمه وصفاته، ومكانه من ابن حزم ومكانته من العلماء والفقهاء، ارتقى فوق شبهات الكذب والادعاء، وحلَّ منازل التصديق والإجلال، وثبت من الثقات العدول، وأخذنا عنه في ثقة واطمئنان.

وحسبنا بعد ذلك ما ذكره ابن حزم نفسه عن نسبه:

"سَمَا بيَ ساسان ودارا وبعدَهم قريشُ العلا أعياصُها والعنابس

فما أخَّرتْ حربٌ مراتبَ سؤددي ولا قعدتْ بي عن ذرى المجدِ فارس"[4]

فلم تتصدع أبواب التاريخ لابن حزم بأصله ونسبه، وإنما ولجها بعلمه وفكره، وهما كل ما تبقى منه وله.

---

(1) كما رأينا عند المستشرق الهولندي "دوزي" ومن تبنى نظريته من باحثين، وعند الدكتور طه الحاجري الذي علل إسبانيته أن اسم حزم أكثر شيوعًا في الأندلس منه في الشرق، في حين لم يجزم الدكتور الطاهر أحمد مكي بأصول أسرة ابن حزم، ولا الديانة التي كانوا عليها.

(2) حيان بن خلف أبو مروان القرطبي، وما نُقل عنه في الذخيرة لابن بسام.

(3) نقلًا عن الدكتور عبد الحليم عويس من كتابه: "ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي"، ص52.

(4) ديوان الإمام ابن حزم الظاهري، جمع وتحقيق ودراسة: د. صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، ص67.

عصره:

بوجه عام لا نستطيع أن نفصل بين المنتوج الفكري والثقافي لعصر ما، ومعطيات هذا العصر ومدخلاته بكل محاورها وتشعبها اجتماعيًّا وسياسيًّا و اقتصاديًّا... إلخ، وأن هذا المنتوج يتكئ في بنائه وصياغته على معطيات ومفردات عصور سبقته اعتمدت في طرحها كذلك على ما سبقها. وهكذا يتلاقح الفكر مُنْتِجًا عطاء إنسانيًّا يصطبغ بالضرورة بمقدمات عصرٍ سبقه.

وبوجه خاص لا نستطيع أن نفصل الفترة التي عاشها ابن حزم الأندلسي ما بين مولده في الأندلس عام 384هـ، ووفاته فيها عام 456هـ، عما مرَّ بهذه البلاد من أحداث شكَّلتْ مقدمات أساسية وحيوية في تكوين ابن حزم الإنساني ومنتجه الفكري.

ولعل المبدعين والمفكرين من أكثر الشرائح الإنسانية اندماجًا مع مفردات عصرهم ومعطياته، ومن أكثرهم تأثرًا بهذه المعطيات وتفاعلًا معها؛ فكلما توهَّج الإبداع والفكر، كان اعتصاره وهضمه لهذه المعطيات التي تسري في دمائه، وتسهم في بنائه، فتتجلَّى في طرحه وعطائه.

وعلاقة المفكر بعصره هي علاقة جدليَّة على مستوى العطاء وتنوعه، فإذا ما تعددت الروافد/ المدخلات، أثرى ذلك الفكرَ وعدَّده، كذلك حين يكون المفكر ذا كيميائيَّة فكريَّة نشطة، ورؤى قادرة على الإحاطة بمفردات عصره وإشكالياته، يستطيع حينئذ أن يسهم بإيجابية وفاعلية في إحداثيات هذا العصر، وإن لم يستطع أن يعيد صياغة معادلاتها، كان شاهدًا أمينًا دقيق التشخيص لمن يملك آليات العلاج بإخلاص، وحين يكون المفكر هو ابن حزم؛ تنتصب أمامنا علاقة شائكة ومتشابكة، طرفاها على قدر كبير من المشاكسة والغنى.

فهو في نظر الذين ترجموا له: "ابن حزم الأوحد البحر، ذو الفنون والمعارف... الفقيه الحافظ المتكلم، الأديب، الوزير، الظاهري، صاحب التصانيف"[1].

و"كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، ومستنبطًا للأحكام في الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمَّة، عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعًا ذا فضائل جمَّة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به في العلوم وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمستندات شيئًا كثيرًا، سمع

(1) سير أعلام النبلاء، ص540.

سماعًا جمًّا"[1].

ويقول عنه ابن الحوات[2]:

"... لولا خوف المشغبين، وما دهينا به من رؤوس الجاهلية، لكتبت أقوالك، ومذهبك، وبثثتها في العالم، وناديت عليها كما ينادي على السلع"[3].

هذا هو ابن حزم، وتلك كانت بعض شهادات مترجميه ومعاصريه، موسوعيٌ يجهد الباحثَ تقصِّي معارفه وثقافته ومشاربها، له في كل علمٍ سهمٌ، و أينما يمَّم الباحث وجهه لترجمة في تخصصٍ انتصب أمامه فضلُه وجهده فيه، وما تأسّدت هذه الموسوعية والثقافة إلّا بهضم معطيات العصر السياسية والاجتماعية والعلمية كافة، بكل أطيافها وألوانها وطعومها.

أما عن عصره، فإن أي عصر تشكِّل ملامحَه عدةُ محاور، تدور كلها حول محور رئيس؛ هو المحور السياسي، الذي يتحكم في إدارة بقية المحاور حوله أيا كانت اجتماعية أو اقتصادية... إلخ. وإذا كان من الطبيعي أن تتأثر بهذا المحور كل الشرائح الاجتماعية، فقد تأثر ابن حزم بها بشكل خاص؛ لكونه ورث الوزارة فيما ورثه عن أبيه؛ فقد كان وزيرًا ابن وزير، في عصر اشتعلت فيه الفتن والصراعات، بالقدر الذي تبدَّل معه وجه الأندلس الإسلامي، ودوره في الحضارة الإنسانية. وقد اصطلح معظم المؤرخين على تسمية هذه الحقبة بعصر الطوائف، التي "تشغل من تاريخ إسبانيا زهاء سبعين أو ثمانين عامًا من انهيار الخلافة الأندلسية على أثر انهيار الدولة العامريَّة سنة 399هـ، وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى أو انقسامها إلى وحدات متعددة تقوم في كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك "الطوائف" تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة، ولا تربطها بجاراتها أو زميلاتها أية رابطة إلا أن تكون المنافسة أو الحرب الأهلية في سبيل الغنم والتوسع، وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الانتحارية هو قوام عصر الطوائف"[4].

ولا نستطيع أن ننتزع هذه الخارطة الزمنية أو نفصلها عن سياق تاريخي كانت هي نتيجة لمقدمات سبقتها، والأحرى أن نقول إنها نتيجة منطقية وطبيعية لتلك المقدمات، التي استشرفها ملك الفرنجة (قارلة) عندما هاجم العرب بلاده:

---

(1) الحميدي، الجذوة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008م، 329/1، وانظر: 427/2.

(2) هو عبد الرحمن بن أحمد بن خلف المعروف بابن الحوات، (الحميدي، الجذوة، 270/1، للتعريف به).

(3) الرسائل، 187/3، 188.

(4) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، 3/3.

"الرأي عندي ألّا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم، ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر"[1].

ويبدو أن سيرة العرب المسلمين قد دارت في فلك هذه المقولة قبل ميلاد ابن حزم بأربعة وثلاثين عامًا؛ أي في عام ٣٥٠هـ، توفي الخليفة عبد الرحمن الناصر، بعد حكم دام خمسون عامًا، وقد كان عصر عبد الرحمن الناصر "عصر عظمة ورخاء ومجد، بل كان في الو اقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية. وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد في عصر المنصور ابن أبي عامر ذروة تفوقها السياسي والحربي في شبه الجزيرة الإسبانية، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة القوة والبهاء، وكان هذا العهد هو الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها، ومراحل انحلالها وسقوطها"[2].

"وكان خلفاء العباسيين قد ضعف شأنهم، واستبد بأمرهم الوزراء والقواد، وصارت خلافتهم اسمًا لا مسمى لها، عندئذ ادعى عبد الرحمن الناصر الخلافة، وصار يلقب نفسه بأمير المؤمنين، وكان ذلك اسمًا لمن جاء بعده"[3].

وتولَّى الحكمَ من بعده ابنه الحَكَمُ المستنصر، وسار على نهج أبيه وسياسته؛ فردّ مطامع القوط من نصارى الشمال الغربي في الأندلس، حين هاجموا ثغور المسلمين بعد أن تولى الحكم مباشرة، وفتح حصن "سانت استيفان" وهو من أشد حصونهم، وكذا فعل مع مجموعة أخرى في شمال الأندلس (ليون) فأمّن الثغور ورد المطامع، واستطاع أن يعيد تمرد حاكم البشكنس حين نقض العهد، وفتح حصن (قلهرة) وضمه إلى حكم الأندلس، وقد كانت قلعة لنصارى البشنكس للهجوم على ثغور المسلمين، ورد هجوم المجوس النورمان عام ٣٥٥هـ في وادي (شِلْب)، فانقلبوا على أعقابهم خاسرين. وبالجملة فقد كان في رباط دائم لتأمين الثغور وإرهاب أعدائه حتى أن (شانجة) ملك ليون أرسل إليه مهادنًا ومعتذرًا عما بدر منه من إغارات ضد ثغور المسلمين، وأظهر له الولاء والطاعة والخضوع، فأمّن بذلك ميراث أبيه، والحفاظ على هيبة المسلمين برد كيد أعدائهم

(1) محمد أبو زهرة، ص80. و انظر: نفح الطيب، 22/3.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 435/2

(3) محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، ص81.

بشجاعة وإخلاص.

بيد أن ذلك لم يلهه عن استكمال ما بدأه أبوه من تنشيط الحركة العلمية والثقافية، وقد اتفق ذلك مع ما يتمتع به الحكم من سمات شخصية أبرزها شغفٌ بالعلم، وجمعٌ للكتب عظيم، وقد جاء عن ابن حزم "إن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط"[1].

وقد انعكس ذلك على عصره الذي كان من أزهى عصور الأندلس اهتمامًا بالعلوم والآداب. وشاهدُ ذلك وجود أضخم مكتبة في هذا العصر وهي المكتبة الأموية، "وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذي قام به الحَكَم في إنشاء المكتبة الأموية الكبرى. وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر أعظم مكتبات قرطبة، وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق.

ولما توفي الناصر، عني ولده الحَكَم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها، يقول ابن حيان في دهشة وإعجاب إنه "لم يسمع في الإسلام بخليفة، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين، و إثارها والتهمم بها، أفاد على العلم ونوه بأهله ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية"[2].

وفي عام ٣٦٦هـ؛ أي قبل ميلاد ابن حزم بثمانية عشر عامًا، توفي الحكم المستنصر بعد أن قضي في الحكم ستة عشر عامًا، وكان قد عهد بالأمر من بعده لابنه هشام المؤيد ذي العشرة أعوام وبعض الأشهر، والذي بويع بالخلافة بعد عدد من المؤامرات أدارها باقتدار وإحكام محمد بن أبي عامر[3].

وكان ابن أبي عامر قد نال الحظوة عند الحكم المستنصر بدعم من جاريته ومحظيته (صبح) أم ولده هشام. وقد كانت ذات سلطة ونفوذ عند الحكم وفي بلاطه؛ فهو يستمع لرأيها ويثق في إخلاصها، ويتبع مشورتها في تسيير أمور الحكم، إلى حد تعيين وزرائه وبطانته، فلم يكن صعبًا عليها دعم ابن أبي عامر، والذي راق لها شبابه وفتوته ووقدة ذكائه، ولم يكن صعبًا عليه أن يهز أوتار قلبها، ويذكي جذوة حيويتها وفورة شبابها،

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، ط7، مصر، 2010م، ص92.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 504/2، 505.

(3) المرجع السابق، 518/2.

خاصة أن الحكم قد أعيته الستون عامًا، و أقعدت عنه ما يروّيها.

واستمرت صبح في دعمها لابن أبي عامر حتى عينه الحكم مديرًا للشرطة، وبعد وفاة الحكم، مُنحت صبح الوصاية على ولدها الصبي، "واكتسبت بذلك صفة شرعية في الاشتراك في الحكم وتدبير الشئون"[1].

وقد استطاع ابن أبي عامر بدعم من صبح ومساندتها له أن يتخلص من جميع خصومه، حتى أصبح حاجب الخليفة، وتوطدت العلاقة بينهما؛ إذ رأت فيه صبح القوي الذي يحمي عرش ابنها التي تحكم باسمه، فوضعت فيه كل ثقتها، كذلك وجد فيها ابن أبي عامر وسيلة سهلة لتحقيق مآربه وآماله في الحكم.

استبد ابن ابي عامر بالأمر، وعزل الخليفة هشامًا المؤيد داخل قصر في أحد ضواحي العاصمة، فلم يسمح لأحد بزيارته أو رؤيته، وتوسل بمكانته عند صبح أن تخلق الأعذار لحجب ولدها عن الناس، وفي المرات القليلة التي يخرج فيها الخليفة، كانت تحوطه الجند بكثافة حتى لا يراه أو يقترب منه أحد.

"ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة، والمرشحين للرياسة، رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة من زناتة والبربر، فرتب منهم جندًا، واصطنع منهم، فتغلب على هشام وحَجَرَه، واستولى على الدولة، وقدّم رجال البرابرة وزناتة وأخّر رجال العرب، وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة، ومحا رسم الخلافة بالجملة، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتْب اسمه في السكة. ورد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا ستًّا وخمسين غزوة لم تنكّس له فيها راية ولا فُلّ له جيش"[2].

استمر حكم المنصور سبعة وعشرين عامًا، أسس فيها أندلسًا شامخًا وقويًّا ومزدهرًا سياسيًّا وعسكريًّا. وبالرغم من اغتصابه السلطة من هشام المؤيد؛ فإنه حافظ على الشكل الشرعي للخلافة وحرص عليه، وأوصى به أبناءه من بعده.

"وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر، ما بين وزراء وكتاب، وكان من وزرائه، أبو مروان عبدالملك بن الشهيد، ومحمد بن جهور،

([1]) عنان، دولة الإسلام، 520/2.

([2]) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م، 185/1.

وعيسى بن فُطيس، و أبو عبدالله بن عياش، وأحمد بن محمد بن حدير، ومحمد بن حفص بن جابر، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير، وكان من أقدروزراء المنصورو آثرهم لديه، وكان المنصورقد استوزره قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١هـ، وبلغ من ثقته به أنه كان يستخلفه على المملكة في أوقات معينة، ويعهد إليه بخاتمه، والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان، شمخ بأنفه وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد، فتغير عليه المنصور، و أقصاه عن خدمة الوزارة، وبعثه إلى كورة المغرب لينظر في شؤونها، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه، ورده إلى منصبه في الوزارة، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة"[1].

وفي آخر ليلة من شهر رمضان سنة ٣٨٤هـ، وبعد ثلاثة أعوام من توليه الوزارة، رُزق أحمد بن سعيد بن حزم بمن شق الأفق علمه وذاع في الزمان صيته، الإمام علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وكنيته أبو محمد؛ حيث تفتحت عيناه على أب وزير وترف عيش، وسمو مكانة، واستقرار حال وأمن وطمأنينة اتسم بهم عصر المنصور. وبالرغم من ذلك، ومن اجتماع كل السلطات والقوى بيد المنصور، وبالرغم من أنه استطاع أن ينتزع الحكم، فإنه لم يستطع أن ينتزع حب الناس والخلافة.

"وهناك ما يدل بالفعل على أن المنصوركان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة، وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم، ويروي تفاصيله نقلًا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور، وملخص رو ايته أن المنصورجمع للمشورة في ذلك الأمر قومًا من خواصه منهم ابن حزم، و ابن عباس، و ابن فطيس من الوزراء، وبعض الفقهاء، وقد صوّب رأيه ابن عباس و ابن فطيس، ولكن ابن حزم عارض فيه وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال، وأن المنصور ليس في حاجة إلى مثله، وبيده سائر الأمور، وتردد رأي الفقهاء بين الاعتراض والمو افقة"[2].

وفي ربيع ٣٩٢هـ توفي المنصورودُفن في مدينة سالم، وكان يحمل أكفانه معه، وما كان يجمع من غباريعلق بملابسه في الغزو، ونفذت وصيته بأن ذروا عليه غبار الجهاد، ووارووه التراب، وكتبوا على قبره:

آثارُهُ تُنبيكَ عن أخبــارِهِ حـتـَّى كأنَّــكَ بالعيـانِ تراهُ
تاللهِ لا يأتي الزمانُ بمثلِهِ أبدًا ولا يحمي الثغورَسواهُ

(1) عنان، دولة الإسلام، 274/2.

(2) السابق، 553/2، 554.

وقد كان عُمْر ابن حزم وقتها ثمانية أعوام.

بعد وفاة المنصور خلفه في سلطانه ابنه عبد الملك، والذي بادر باستصدار مرسوم من الخليفة هشام المؤيد بتوليته الحجابة مكان أبيه، وجلس مكانه في قصر الزاهرة، واستتب له الأمر، وتأمّل الناس منه خيرًا؛ فاتبع سياسة أبيه، وسار على نهجه في إدارة الحكم، وغزو ممالك النصارى.

"غزا قطلونية وبرشلونة سنة٣٩٣هـ/١٠٠٣م، وأرغم أميرها "رامون بوريل الثالث" على طلب الصلح، وفي صيف ٣٩٥هـ/١٠٠٥م غزا أراضي ليون، وفي صيف ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة، وفي ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م غزا كونتينة قشتالة، ثم غزاها مرة أخرى في العام التالي، وفيه أيضًا أراد أن يخرج للغزو مرة ثالثة، ولكنه مرض واشتدت عليه العلة، وتوفي ربما بالتهاب رئوي في ١٦ صفر٣٩٩هـ/٢١ أكتوبر١٠٠٨م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب كانت سنوات رخاء ونصر"[1].

لم يتغير شيء في أساليب الحكم أيام عبد الملك المظفر عما كان في أيام أبيه المنصور، غير أنه كان أكثر توددًا للخليفة الذي ظلَّ محجوبًا عن الناس والحكم، وقد تسنى لابن حزم الابن أن يحضر احتفالات المظفر ومجالسه، وقد كان في الثانية عشرة من عمره، حين حضر مجلس المظفر في الاحتفالات بعيد الفطر عام ٣٩٦هـ، وفي ذلك المجلس كان صاعد ينشد المظفر في يوم عيد الفطر قصيدته التي مطلعها:

إليك حَدَوْتُ ناجية الركابِ مُحمّلة أمانيَ كالهضابِ

فأخذ علي يستحسنها، ويصغي إليها؛ مما حدا بصاعد أن يكتبها له بخطه وينفذها إليه، ثم تقوى صلته بوالده بعد ذلك، ويصبح من شهود مجلسه.

"ولا يقف الأمر عند هذه المجالس الرسمية، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه، فهو يحدثنا في الطوق أن ضنا العامرية، كريمة المظفر، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتًا من الشعر، اقترحت عليه أفكارها، لتصنع لها لحنًا وتجعل منها صوتا يغني"[2].

ونظم بعضهم في وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية:

"زمان جديد وصنع جديد ودنيا تروق ونعمى تزيد

وغيث يصوب وعيش يطيب وعز يدوم وعيد يعود

(1) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م، ص٤٠٦.

(2) د. الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٦٧.

ودهر ينير بعبـــد المليـك كشمس الضحى ساعدتها السعود"[1].

يعد عام ٣٩٩هـ، حدًّا فاصلًا في تاريخ ابن حزم والأندلس، أما عن ابن حزم فهو في الخامسة عشرة من عمره، يرفل في ترف ونعيم والدٍ هو وزير لعهدين نعمت فيهما الأندلس بالأمن والسؤدد والازدهار سياسيًّا و اقتصاديًّا وتألقت عسكريًّا؛ هما عهد المنصور العامري الذي خاض غمار ستٍ وخمسين غزوة لم يهزم فيها قط، وولده عبد الملك المظفر الذي أكمل ما بدأه أبوه.

وهو وزير له اعتبارٌ وهّجته صفات شخصية تتسم بالعلم والأدب، وحصافة الرأي، وألمعية الذكاء، وكل ذلك ورثه الابن وبنى عليه ما خلّفته الأيام والمحن في قادم عمره فيما بعد؛ فاكتسى بذلك حُلةً من التقدير والوجاهة، هي فضفاضة على أنداده، وربما على كثير ممن تجاوزوه عمرًا ومكانة، ولم يكن يدري ابن حزم أن قابل الأيام هو دبر السعادة والاستقرار، وأن بعد هذا العام ٣٩٩هـ، هو الوجه الآخر للقمر.

أما عن الأندلس، فبوفاة عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩هـ، دُفِنَتْ ثلاثة وثلاثون عامًا من الاستقرار والرخاء، هي مدة الحكم العامري بعهديه المنصور والمظفر التي بدأت من أمر الوصاية على الخليفة الصبي في ٣٦٦هـ.

وهو حكم يفتقد إلى الشرعية، قام على أسباب تقويضه أكثر من دعائم بنائه؛ فالخليفة الشرعي تم الحجر عليه في قصر الزهراء الخليفي في قرطبة، واستُلبت كل حقوقه وسلطاته، واستطاع المنصور أن يعزله عن الناس والعالم، ويستأثر بكل السلطات، ولما لم يكن يجرؤ على استلاب الخلافة التي كانت تراود حلمه، فقد أحاط نفسه بكل مظاهر الملك والأبهة، وعلى غرار ما أنشأ عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء، والتي وصفها ابن خلكان بقوله:" والزهراء من عجائب أبنية الدنيا"[2].

ثم ابتنى فيها قصرًا للخلافة لم يدخر جهدًا ولا وسعًا في تزيينه وروعة معماريته وفخامته، وكذا ابتنى بها مسجدًا لا يقل فخامة وجلالًا عن المدينة والقصر، واستكمل الحكم المستنصر بناء المدينة التي غدت مركزًا للخلافة والحكم. على غرار ذلك أنشأ المنصور العامري مدينة الزاهرة على جمال و أناقة وفخامة وجلال، و ابتنى بها قصرًا ملوكيًّا ومسجدًا على قدر وفخامة المدينة؛ يقول عنها الفتح بن خاقان: "ونسق فيها

(1) عنان، دولة الإسلام، 621/2. نقلًا عن البيان المغرب، 18/3 - 21.

(2) أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977م، 26/5.

(المنصور) كل اقتدار معجز ونظم... وحشد إليها الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها بهاءً يرد العيون كليلة؛ وتوسع في اختطافها، وتولَّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها... وشحنها بجميع أسلحته، وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال

وقد استطاع المنصور أن يبوّئ الأندلس مكانة ومجدًا لم يشهدهما أي عهد قبله، واستطاع أن ينتزع إعجاب الناس بذكائه، وحسن تدبيره، وحنكته في الحكم، وتسيير أمور البلاد، غير أنه لم يستطع أن ينال محبتهم وتأييدهم، فلم ينس الناس أنه وصل إلى ما وصل إليه بتدبير المؤامرات، وإراقة الدماء، واغتصابه لحقوق الخليفة المستضعف هشام المؤيد، وهو في نظرهم حاكم غير شرعي، وهم لن يمنحوه هذه الشرعية التي كانت تحكمها العصبية في تلك الأيام، فلم يكن وراءه عائلة تسانده ويستقوى بها وتتعصب له كما كان لبني أمية أو بني العباس، وقد كان المنصور يدرك ذلك، وخطورة أن يفتئت على الخلافة، ويوصي به أبناءه.

"وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور ابن أبي عامر كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر، ويفضي به إلى خاصته، وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم والد الفيلسوف الشهير أن المنصور كان يقول: "ويحا لك يا زاهرة الحسن، لقد حسن مرآك وعبق ثراك، وراق منظرك، وفاق مخبرك، وطاب تربك، وعذب شربك، فيا ليت شعري من الذي يهدمك، ويوهن جسمك ويعدمك". وأنه كان يؤكد لأصحابه هذه النبوءة في مناسبات كثيرة"[1].

وبوفاة عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩هـ، آن لهذه النبوءة أن تتحقق، وآن لابن حزم البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، أن يودع الدعة والاستقرار، كما ودعته الأندلس، وينصهر في بوتقة من المحن، ويتشكل بين سندان الفتنة ومطرقة النضال.

في السادس عشر من صفر ٣٩٩هـ توفي عبد الملك المظفر، وفي السابع عشر من صفر ٣٩٩هـ، جلس عبدالرحمن بن المنصور مكان أخيه وهو ابن خمسة وعشرين عامًا، وفي اليوم نفسه مَثل بين يدَي الخليفة المؤيد ليوليه الحجابة، وقد كان عبدالرحمن أهوج طائشًا، فانتهج سياسة غير التي كان عليها أبوه وأخوه، فجاهر بالمعاصي والمجون، ولم يكن يتمتع بأي من خلال الحكم والحنكة، مما أثار حفيظة الناس ضده، وتململ داخلهم ضيقهم باستبداد العامريين، إضافة إلى عدم ارتياحهم إليه كون أمه نصرانية وأسلمت،

(1) عنان، 635/2.

وكان المنصور قد أسر أباها "سانشو غرسيه" ملك نافار، ثم أطلق سراحه وتزوجها، فاعتنقت الإسلام وأسماها عبدة.

"وكان الأندلسيون يعرفون ذلك عنه ولا يستريحون إليه، أي لا يستريحون لأن أمه نصرانية، فلقبوه بشنجول أو سانشو لو sanchuelo أو سانشو الصغير نسبة لأمه بنت سانشو أباركه كما قدمنا، وكان الناس يكرهونه ويحتقرونه، ولم يحتملوا أن يروه قائمًا بالأمر مكان أبيه المنصور، وزاد سخطهم عندما سمعوا أن عبدالرحمن شنجول، يسعى لكي يستصدر مرسومًا بتعيينه وليًّا لعهد الخلافة، وقد أنكر الناس ذلك إنكارًا شديدًا، وقامت قيامتهم لأن الرجل كان من الناحية الأخلاقية أبعد ما يكون عن أن يستحق الخلافة، ولكن عبدالرحمن فعل ذلك وأصبح ولي عهد الخليفة"[1].

وبذلك دقّ عبد الرحمن شنجول آخر مسمار في نعش العهد العامري، وهو ما كان يدركه أبوه المنصور بفطنته وذكائه، واتبعه من بعده عبد الملك المظفر؛ فلم يحاول أي منهما أن يلقي بنفسه وملكه في هذا الأتون، ولكن أنّى لهذا الغرير المغرور الطائش الأهوج عبد الرحمن شنجول بتلك الفطنة، وذاك الذكاء؟

"وذهب عبد الرحمن في غروره واختياله إلى أبعد مدى، فعيّن ابنه الطفل عبد العزيز في خطة الحجابة، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة، وهو لقب عمه المظفر، واعتقد عبد الرحمن أنه حقق مشروعه العظيم، في تخليد ملك الدولة العامرية، وأن الأمور قد دانت كلها له، فأطلق العنان لأهوائه وانكب على لهوه وشرابه، يحيط به نفرٌ من البطانة السيئة والندماء الأسافل يصدرون له الأحوال في أبدع الصور وأحبها إلى نفسه"[2].

ازداد الغضب، وبدأ يململ غطاءَ القهر والاستبداد العامريين وينفث ثورته على شكل احتجاجات، زاد تأجيجها أن أصدر عبد الرحمن أمرًا باستبدال الناس عمائم البربر بأغطية الرأس الأندلسية، وعلا الهمس لإعادة بني أمية للحكم والخلافة، وكان أن أراد ابن شنجول أن يصرف الناس عن تذمّرهم، فأمر بالخروج إلى الغزو كما كان يفعل أبوه وأخوه، ولم يرضخ لنصيحة مستشاريه بأن الوقت غير مناسب لذلك، وبخاصة أن بني أمية يكيدون لاستعادة الحكم، غير أنه ضرب بهذه النصيحة عرض الحائط وأعلن في جمادى الأولى سنة ٣٩٩هـ خروجه لغزو قشتالة...

([1]) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م، ص٤٠٦.

([2]) عنان، 628/2.

ولما زاد السخط على ابن شنجول والتذمّر منه، وجد بنو أمية الفرصة سانحة لاستجماع قواهم واستعادة ملكهم المغتصب من العامريين، واختاروا من بينهم محمد بن هشام بن عبدالجبار، وبايعوه سرًّا بالخلافة، تدعمهم في ذلك (الزلفاء) والدة عبدالملك المنصور، شديدة الذكاء، كثيرة المال، عريضة الجاه، يشتعل في قلبها اليقين بأن ابنها عبدالملك قتله عبدالرحمن شنجول غيلة بالسم، أما محمد بن هشام بن عبدالجبار فكان منذ قُتل أبوه هشام، يعيش متخفيًّا في كهوف قرطبة يجمع حوله الأنصار، حتى هيّأ له طيشُ عبدالرحمن شنجول واستهتاره وغروره، الظروفَ لأن يحشد أنصاره، لتنفيذ مخططهم، وكان خروج عبدالرحمن للغزو أنسب وقت للقيام بذلك، فقد خرج معه معظم الجيش، وحدد محمد بن هشام ساعة الصفر بدخول عبدالرحمن أرض النصارى؛ "لأن الجيش يحتاج إلى شهر لكي يعود من هناك، وبالفعل نفذوا المؤامرة في ١٦ جمادي الأولى ٣٩٩هـ/ ١٥ فبراير ١٠٠٩م بادئين بالهجوم على قصر قرطبة و اقتحموه وقتلوا صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر، ثم بايع محمد بن عبدالجبار لنفسه وبايعه أصحابه و اتخذ لقب المهدي، واختار قريبًا له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده، وأرغم هشامًا (الثاني) المؤيد على التنازل، فتنازل بعد أن مكث في منصب الخلافة ثلاثة وثلاثين سنة.

كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ/ ١٦ فبراير ١٠٠٩م. ثم تهدّمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها في أيام"[1].

وكان عبدالرحمن في طليطلة عندما بلغه نبأ الانقلاب، فدبَّ الارتباك والفوضى بين جنوده، وتخلّى عنه معظمهم، وتخلّى عنه جميع البربر الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من جيشه، وعادوا إلى قرطبة لحماية أبنائهم، ووجد عبدالرحمن نفسه وحيدًا، و انتهى أمره بأن قبض عليه رجال محمد بن هشام وذبحوه، وفصلوا رأسه عن جسده، وحملوه إلى المهدي في المساء نفسه، الثالث من رجب ٣٩٩هـ، لتتهاوى في ثلاثة أشهر - هي مدة حكم عبدالرحمن شنجول - ما شيّده المنصور العامري في ثلاثة وثلاثين عامًا.

وفي ٢٧ من شعبان سنة ٣٩٩هـ، أعلن المهدي موت الخليفة هشام المؤيد، وشهد دفنه حشد كبير من الناس، وهي حيلة احتالها المهدي ليخلو له الطريق، وسخر الناسُ من هذه الحيلة التي لم تنطل عليهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أن هشامًا لم يمت، لتطرق بذلك الأندلس أبوابَ فتنة كبرى عاصرها ابن حزم و اكتوى بنارها. "فمن ذلك اليوم سُلّ سيف

(1) دكتور حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص407، 408.

الفتنة ولم يغمد إلى يومنا هذا" [1].

يقول ابن حزم: "ثم انتقل أبي - رحمه الله - من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة، وانتقلت أنا بانتقاله في جمادى الآخرة سنة تسعٍ وتسعين وثلاث مئة"[2] .

وبالرغم من أن المهدي استطاع أن يقود ثورةً ناجحة أسقط فيها الدولة العامرية، واسترد فيها خلافة بني أمية، فإنه لم يكن رجل المرحلة، ولم يكن يتمتع بأي خبرة سياسية تمكّنه من السيطرة على الفوضى التي أعقبت الانقلاب، وإعادة النظام إلى دولةٍ فقدت بالانقلاب توازنها، وتقوّضت دعائمها، بل على العكس، فقد غرزوبطانته أنيابَ شهواتهم في الناس، فآذوهم أيّما إيذاء، وزكمت الأنوفَ رائحة معاصيهم، وخمش النفوسَ مجونُهم واستهتارهم، وانفلت فسقُهم من العقال فعاثوا فسادًا وظلمًا، وانكمشت في الناس خطوات الأمل، وخبت جذوة الحلم في غدٍ يتحرر من استبداد العامريين وقهرهم.

ظن المهدي أن الأمر قد استتب له، وأغوته حلة الخلافة، وبدلًا من أن تقبض يداه على زمام الأمور بحسم وحزم يردّان الناس عن فوضاهم، عملت بالبطش والظلم والرعونة، فسجن ولي عهده سليمان بن هشام، والتفت إلى الانتقام من العامريين ومن والاهم، فأهان البربر، وآذاهم، وسرّح عددًا غفيرًا منهم من الجيش، وقد كانوا عماده، وبالغ في قتلهم ونهب دورهم، واغتصاب نسائهم وسبيهن، وأمر بإخراجهم من قرطبة، إلا أنهم رفضوا الخروج، فلم يكن البربر بالقوة التي يستهان بها؛ فقد استوطنوا الأندلس بعد أن استقدمهم المنصور ليكونوا عماد جيشه، فشكّلوا قوةً عسكريةً كان لها النصيب الوافر في كل الانتصارات العسكرية التي حققها العامريون، وعلا بهم سهم الأندلس العسكري، كذلك شكّلوا قوة اجتماعية بالامتيازات التي منحها لهم العامريون، وقد رأينا مبلغ تميّزهم وإيثارهم عند عبدالرحمن بن المنصور حين أمر الأندلسيين باستبدال عمائم البربر بزيهم. لذا لم يكن من السهل على البربر الاستجابة لأمر المهدي، فتجمّعوا وأجمعوا أمرهم على عزل المهدي، واختاروا بدلاً منه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، واقتحموا قرطبة بالقوة، وعملوا فيها بالفساد والقتل، وفرّ المهدي من قرطبة، ويحمّل

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص102.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، في الألفة والألاف، تحقيق: فاروق سعد، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د. ت)، ص250.

ابنُ حزم المهدي مسؤولية هذه الفتنة، فيقول: "وفي أيامه ابتدأ فساد الأندلس"[1] .

"ولما رأى المهدي هزيمة جنده، أسقط في يده، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة، يدفع بها دعوى سليمان، فأظهر الخليفة هشامًا المؤيد، وكان قد أخفاه حسبما تقدم، وزعم أنه مات، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر يخبرهم أن الخليفة هشامًا مازال على قيد الحياة، و أنه الإمام الشرعي، وليس المهدي سوى نائبه وصاحبه، فرده البربر بجفاء وسخرية، و أيدوا تمسّكهم بولاية سليمان. ولم ير المهدي أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته، فغادر القصر سرًّا، واخترق قرطبة متنكرًا، ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر القصر، ودخل سليمان بن الحكم في أثره في يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة، وبايعه الناس بالخلافة وتلقب بالمستعين بالله، واستقبله الشعب القرطبي القُلَّب بحماسة شأنه مع كل متغلب وظافر"[2].

لم تستقر الأمور للمستعين، وما كانت لتستقر، وقد اشتدّ سخط الأندلسيين ورفضهم للبربر من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر تدابير المهدي لاستعادة حكمه. وقد انضم إليه واضح العامري، ولم يستطع المستعين أن يحصل على ولاء أيّ من طليطلة أو مدينة سالم؛ درءًا لتدابير المهدي، الذي نجح وواضح العامري في الاستعانة بالنصارى؛ حيث اتفقا وأميرَي (أورقلة) و(برشلونة) على أن يمداهما بجيش لمقاتلة البربر؛ على أن تكون الغنائم من البربر سلاحًا ومالًا من نصيب النصارى.

وفي شوال سنة ٤٠٠هـ، وعند (عقبة البقر)، كان اللقاء بين جيشَي المستعين والمهدي؛ حيث انهزم البربر، وفرَّ المستعين، وعاد الأمر للمهدي، وجدد لنفسه البيعة.

ثم إنه أراد أن يقضي على البربر نهائيًّا، فحشد قواته وخرج لمطاردتهم، وفي ذي القعدة من العام نفسه سنة ٤٠٠هـ، التقى الجيشان عند وادي (أيره)، وكانت معركة طاحنة انتصر فيها البربر، وتقهقر المهدي إلى قرطبة وقد تخلّى عنه النصارى عائدين إلى ديارهم، وتألّب عليه الصقالبة العامريون وعلى رأسهم واضح العامري، فأخرجوا هشامًا المؤيد من محبسه، ونصّبوه خليفةً للمرة الثالثة في ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ، ثم جاءوا إليه بالمهدي، فقطع رأسه عن جسده، وطافوا بها في الشوارع.

وعلى إثر قيام ابن حزم ووالده بحضور الجنازة المزوّرة للخليفة، قام هشام المؤيد بعد عودته الثالثة للخلافة، باضطهاد آل حزم بتهمة موالاتهم للمهدي، يقول ابن حزم:

([1]) جمهرة أنساب العرب، ص101.

([2]) عنان، دولة الإسلام، 647/2.

"ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة وألقت باعها، وعمّت الناسَ وخصتنا"[1].

لم يستجب البربر لبيعة هشام المؤيد، وتمسّكوا بولاية المستعين، وأعلنوا تمرُّدهم، فهاجموا الزهراء، وعاثوا بقرطبة فسادًا وتخريبًا، ثم حاصروها حتى قلّت مؤنتها، وأرهقت أهلها الضرائب، وفشلت محاولات التفاوض مع المستعين وحلفائه البربر، ورفض المستعين عرضَ المؤيد بأن يجعله ولي عهد الخلافة، وأجاب بأنه لا يعترف بهشام المؤيد خليفة، و أنه هو أمير المؤمنين والخليفة.

واستمر التناوش بين القرطبيين والبربر، حتى كانت معركة طاحنة قُتِل فيها من أهل قرطبة الكثيرون، ودخل فيها سليمان المستعين قرطبة في شوال سنة ٤٠٣هـ.

"وحاول أن يحكم معتمدًا على البربر، ولكنه فشل هذه المرة أيضًا، خاصة وقد أقدم على قتل هشام المؤيد في ١٥ ذي القعدة ٤٠٣هـ/ ١٦ مايو١٠١٣م، وبذلك انتهت حياة ذلك الخليفة المسكين الذي لم يهنأ بخلافته يومًا واحدًا"[2].

وكان عمر ابن حزم وقتها تسعة عشر عامًا، وقد توفيَ والده في العام الذي قبله. يقول ابن حزم: "وأرزمت الفتنة وألقت باعها، وعمّت الناس وخصتنا إلى أن توفيَ أبي الوزير ونحن في هذه الأحوال بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربعمائة، و اتصلت بنا تلك الحال بعده"[3].

أقام سليمان المستعين في مدينة الزهراء، وأضاف الظافر بحول الله إلى لقبه، وأصبح يدير دولة متوترة ومضطربة، يتولى فيها البربر أهم المناصب وأخطرها، و أقطعهم كور الأندلس، وكان ممن أقطعهم بنو حمّود، فولّى القاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء، وولّى علي بن حمود سبتة، وكان هذا الأخير ذا مطامع، فتحالف مع (خيران) صاحب ألمرية بدعوى أن الخليفة هشامًا المؤيد ولَّاه عهدَه سرًّا، وزحف الحليفان على قرطبة وقد انضم إليهما بقوة من البربر شيخُهم زاوي بن زيري، وخرج المستعين للقائهم، ودارت بينهما معركة عظيمة، انتهت بهزيمة سليمان المستعين وأسْره مع أبيه الحكم وأخيه عبدالرحمن، وعن المستعين يقول ابن حزم "وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم

([1]) الطوق، ص251.

([2]) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص412.

([3]) الطوق، ص251.

قومه"[1].

"ودخل عليٌّ بن حمّود قصر قرطبة في الثامن والعشرين من محرم ٤٠٧هـ (أول يولية سنة ١٠١٦م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده، وكان الاعتقاد سائدًا بأن سليمان أخفاه ولم يقتله، فلما علم بأنه قُتل، أتى بسليمان و أبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقامًا للمؤيد، ثم أعلن وفاة المؤيد، ودعا إلى البيعة لنفسه، فبويع بالخلافة، وتلقب بالناصر لدين الله، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قُتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر"[2]. وكان ابن حزم يعترك مع كل هذه الأحداث بثلاثة وعشرين عامًا.

استطاع علي بن حمّود أن يكبح تمرّد البربروعصيانهم ، وضرب بيدٍ من حديد على كلِّ النزعات المناوئة له؛ سواء من العرب أم من البربر حتى استكانت ولانت لحزمه وحسمه، وأظهر ميله للقرطبيين محاولًا أن يعوِّضهم عما فعل البربر بهم، وكان بابه مفتوحًا لكل المظالم ينظر فيها بنفسه، دون محاباة، يعاونه في ذلك أبو الحزم بن جهور، أما عن حليفه خيران العامري، وقد كان حاكمًا على ألمرية، فقد والاه في البدء وأخلص له، واعتقل كلَّ من كان أمويًّا أو مواليًا لهم، وقد نال بطشه ابنَ حزم حين نقل الوشاة إليه أن ابن حزم وصديقه محمد بن إسحاق يناديان بعودة الخلافة الأموية، فسجنهما عدة أشهر ثم نفاهما عن ألمرية إلى حصن القصر، يقول ابن حزم: "وفي إثر ذلك نكبني خيران صاحب ألمرية إذ نقل إليه من لم يتق الله عزوجل من الباغين -وقد انتقم الله منهم- عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى بدعوة الدولة الأموية فاعتقلنا عند نفسه شهرًا، ثم أخرجنا على جهة التغريب"[3].

ولم يلبث خيران أن توجّس من علي وسطوته، فانقلب عليه وغادر قرطبة، وعزم على أن يعيد الحكم للأمويين، ووجد مبتغاه في شخص حفيد عبدالرحمن الناصر وسميّه، وهو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر، فبايعه بالخلافة مع عدد كبير من أصحابه، وتلقّب بالمرتضى.

انزعج علي بن حمّود لمّا بلغه أمر هذه الخيانة، وأن القرطبيين يؤيدون عودة بني أمية؛ فأغلظ عليهم، وهدم بيوتهم، و انتزع أسلحتهم، وأطلق عليهم البربر؛ انتقامًا وظلمًا وهلاكًا وتدميرًا، إلى أن قيّض الله له مِن غلمانه مَن ضاق به وبطغيانه؛ فقتله وهو في

(1) الجمهرة، ص 102.

(2) عنان، 659/2.

(3) الطوق، ص263.

الحمام ليلًا، وقد كان يستعد لقتال المرتضى.

وبعد تردد فيمن يخلفه؛ ابنه أم أخوه؟ استقر رأيهم على مبايعة أخيه القاسم، وتمت المبايعة بعد ستة أيام من موت علي ولقبوه بالمأمون، وما إن بلغ سمْع ابن حزم بدعوة المرتضى التي راقت هواه الأموي، حتى ركب البحر إليه في بلنسية، وانضم إليه وزيرًا، وسار معه في جيشه إلى غرناطة في الطريق إلى قرطبة، وعلى أسوار غرناطة تصدى لهم حاكم غرناطة زاوي بن زيري الصنهاجي، ودارت معركة قاتل فيها المرتضى بضراوة، حتى قُتِل غيلة بتدبير من خيران العامري، ووقع فيها ابن حزم أسيرًا، ثم فك أسره زاوي بن زيري الصنهاجي، "وعاد إلى قرطبة - يعني ابنَ حزم - ليرى أطلالها، وكان ذلك سنة ٤٠٩هـ، بعد أن غاب عنها نحو ست سنين، وقد قال رضي الله عنه: "خرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة، كأنه غاب عنها نحو ست سنين"[1]. وكان عمر ابن حزم في ذلك الوقت خمسة وعشرين عامًا.

وبعد هزيمة المرتضى وقتله، أرسل زاوي الصنهاجي إلى القاسم سرادق المرتضى ضمن نصيبه من الغنائم. وبعد أن استقر القاسم، اتخذ بطانته من السود وخصَّهم بالمناصب، وأحسن إلى الناس فاطمأنوا له، غير أنه لم يستطع أن يتخلّص من هيمنة البربر وسيطرتهم، فضعف أمره، واستغل ذلك ابنُ أخيه يحيى بن علي، وحشد جيشًا قويًّا وزحف إلى قرطبة، ولم يشأ القاسم أن يدخل في حرب، فانسحب، ودخل يحيى بن علي بن حمود قرطبة، وبويع بالخلافة سنة ٤١٢هـ، وتلقّب بالمعتلي بالله، وكان يحيى فارسًا وكريمًا، يؤثر العدل، فأحبه الناس، وفي الوقت نفسه، كان القاسم قد استقر في إشبيلية، وتسمى بالخلافة، وتلقّب بالمستعلي، "ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه، ويعلّق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا "وهو أمر لم يسمع في الدنيا بأشنع منه، ولا أدل على إدبار الأمور[2].

ثم عاد البربر وخلعوا يحيى وجددوا البيعة للقاسم، ودخل قرطبة وتسمى بأمير المؤمنين في ذي القعدة سنة ٤١٣هـ، وكالعادة اصطفى القاسمُ البربرَ، فثار القرطبيون وخلعوا القاسم، وأجبروه على مغادرة القصر في جمادي الثانية سنة ٤١٤هـ، ودارت المعارك بين القرطبيين والبربر، وكانت الغلبة للقرطبيين، وسار القاسم إلى بلدة شريش،

---

(1) أبو زهرة، ص252.

(2) عنان، 663/2.

وهناك التقاه يحيى المعتلي لقتاله، وسجنه هو وابنيه محمد والحسن، وأصبح الأمر ليحيى، وكان أن سئم القرطبيون من كل ذلك، وأجمعوا أمرهم على رد الأمر للأمويين، فاختاروا عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار، وبايعوه في رمضان سنة ٤١٤هـ، وتلقّب بالمستظهر، وكان من وزرائه صديقه ابن حزم وابن عمه عبدالوهاب ابن حزم وكانا "من أكمل فتيان الزمان فهمًا ومعرفة ونفاذًا في العلوم الرفيعة"[1].

وكان المستظهر أديبًا وشاعرًا، وله في ذلك سهمٌ يعتد به، ولذا فقد أحاط نفسه بذمرة من الأدباء والمثقفين، "فكان من بينهم ابن حزم، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب، وأبو عامر بن الشهيد، والشاعر البارع حسان بن مالك، والكاتب الرائع ابن برد"[2].

وقد بدأ هذا الخليفة الشاب حكمه بما أثار حفيظة القرطبيين ضده، فسجن منهم جماعة، وصادر أموالهم بتهمة دعم أبناء عمومته من الأمويين، ولم يلبث أن اعتقل عددًا من أبناء عمه وسجنهم بالقصر، ثم كانت الطامة باستقباله بعض أكابر البربر في القصر، مما ألّب الناس ضده، فكيف يستقبل من حاربوا وقهروا؟! فاقتحموا القصر، وقتلوا البربر، وأخرجوا من كان بالسجن، ثم قتلوا المستظهر بعد شهر ونصف من ولايته.

أما عن ابن حزم "لم يدم الأمر له كما لم يدم الأمر من قبل للمرتضى، وكان نصيب ابن حزم في هذه الوزارة كنصيبه في الأولى ومن نوعه، ففي الأولى انتهى من الوزارة إلى الأسر، وفي هذه المرة انتهى من الوزارة إلى غيابات السجن، ولم يذكر التاريخ متى أفرج عنه، ويظهر أنه أفرج عنه من قريب ولم يستمر طويلاً"[3].

ثم خلف المستظهر بالله ابنُ عمّه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، وبويع بالخلافة في ذي القعدة سنة ٤١٤هـ، وتلقّب بالمستكفي بالله، وهو أبو ولّادة حبيبة ابن زيدون الشاعر الأندلسي المعروف، وهو الذي سجن ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة، بعد موت المستظهر، واضطهد معظم الرجال البارزين والمفكرين، فغادر بعضهم قرطبة لاجئًا إلى يحيى بن حمود بمالقة، ومن بينهم أبو عامر بن شهيد صديق ابن حزم.

وقد كان المستكفي فاسد الرأي ماجنًا، ولم يكن يتمتع بخلال حسنة، فاستاء منه القرطبيون، وخلعوه في ربيع الأول سنة ٤١٦هـ، وقد وطأ ابن حزم هذه الأحداث، وقد بلغ الثانية والثلاثين من عمره، "ولم تقع خلال ولاية المستكفي القصيرة أحداث ذات شأن،

(1) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول المجلد الأول، ص 36، 37.

(2) الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم، ص74.

(3) أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، ص36.

وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقي ونعاه للناس، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر. وفي أيامه هدمت القصور الناصرية، وخربت قصور المنصور بالزاهرة، فسادتها الوحشة والخراب"[1].

دخل يحيى بن حمود قرطبة في الخامس عشر من رمضان سنة ٤١٦هـ، وغادرها في أوائل محرم سنة ٤١٧هـ، بعد أن ترك فيها وزيره أحمد بن موسى ليدير شؤونها، وبعد شهرين دخل قرطبة خيران وزهير العامريان، وألّبا الناس على البربر؛ فصارت فوضى، وقُتِل من البربر حوالي ألف رجل، وفرّ أحمد بن موسى، و اتفق القرطبيون على عودة الأمر إلى بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم بن جَهْوَر بن محمد بن جهور، وكان أن بايعوا هشام بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن الناصر في ربيع الآخر سنة ٤١٨هـ، وتلقّب بالمعتدّ بالله، وأرسل إليه القرطبيون البيعة وهو في مقره بحصن ألبونت؛ حيث كان يقيم بعد قتل المرتضى في ٤٠٩هـ، واستمر هناك سنتين وسبعة أشهر، وهو يُخطب له بقرطبة، إلى أن قدمها في ذي الحجة سنة ٤٢٠هـ، وقد كان ابن حزم وزيرًا له، كما جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي: "كان الفقيه أبو محمد وزيرًا لعبدالرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر لدين الله، ثم لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر".

وألقى المعتد بالله بزمام الأمور إلى رجل من الموالي يسمى حكم بن سعيد القزاز، فأساء التصرف، وأطلق العنان لمجونه واستبداده، وأحاط الخليفة برجاله ليعزله عما حوله، ومن حوله من أصحاب الرأي والمشورة، حتى ضجَّ الناس وضاقت، وتأزمت الأمور، وكان لابد أن يكون لهذا الوضع نهاية، فاجتمع الساخطون تحت إمرة أمية ابن عبدالرحمن العراقي، وهو من أبناء عمومة هشام ومن أحفاد الناصر، وقتلوا حكم بن سعيد القزاز، وطافوا برأسه في الشوارع، في ذي القعدة سنة ٤٢٢هـ، ثم قصدوا القصر وقد اجتمع أمرهم على خلع هشام المعتد، وزعيمهم في ذلك الوزير أبو الحزم بن جهور، الذي كان يحظى بمحبة الناس وثقتهم؛ لنضج رأيه وأصالة منبته.

وتم خلع هشام المعتد، واجتمع رأي الناس جميعًا على التخلّص من بني أمية، وأعلن أبو الحزم بن جهور إبطال رسم الخلافة؛ لعدم وجود من يستحقها. و انتهت بخلع المعتد رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية، و انقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى، " فنودي في الأسواق والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم

(1) عنان، 667/2.

أحد، وكان القائم بالحال في إخراج المعتد بالله أبا الحزم بن جهور"[1].

وبذلك انتهت خلافة بني أمية في الأندلس في ١٢ من ذي القعدة سنة ٤٢٢هـ، ووجد عمال النواحي أنفسهم بلا رمز يوحّدهم ويجتمعون حوله، وتحوّل كلٌّ منهم إلى أمير يحكم ولايته، ومنهم كان عصر الطوائف، وقد استقبله ابن حزم وعمره ثمانية وثلاثون عامًا، وقد كان ذلك آخر عهده بالسياسة والوزارة، وقد تفرغ بعدها للعلم.

"هذا هو الخليفة الأخير الذي كان ابن حزم وزيرًا له، ولكن يظهر أنه لم يستمر وزيرًا له مدة أربع سنين، وإلا شهرت إدارته وعرف أمرها، واستبانت سياسته، فلعله نال هذه الوزارة أمدًا، وليس بين أيدينا ما ينبئ عن مقداره. وإن هذا كان آخر عهد ابن حزم بالسياسة والوزارة، فلم يعلم أنه كان وزيرًا لأحد من بعد ذلك. وفي الحقيقة أن هذا الخليفة كان آخر خلفاء بني أمية، فلم يجتمع أمر لهم بعده؛ ولذا قال المقري في ذلك: "خلعه -أي هشام المعتد بالله - الجند سنة اثنتين وعشرين، وفر إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين، و انقطعت الدولة الأموية من الأرض، و انتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، ونزل الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، و اقتسموا خطتها"[2].

وقد تناهب أوصال قرطبة ما اصطُلِح على تسميتهم بملوك الطوائف، بنو حمُّود ثم المعتمد بن عباد، ومنهم المعتضد الذي أحرق كتب ابن حزم علانية في إشبيلية؛ استجابة لسعاية فقهاء المالكية ضد ابن حزم، وتأليب العامة ضده لمعارضتهم آرائهم، وقد التقى ذلك مع هوى المعتضد الذي لم يكن ابن حزم ينظر إليه أو إلى أمراء عصره نظرة إكبار؛ إذ إنَّه وزير و ابن وزير، كما كان يزعج المعتضد تنديد ابن حزم بخلافة خلف الحصري بإشبيلية ومبايعته على أنه هشام المؤيد سنة ٤٢٥هـ، في عهد المعتمد والد المعتضد، وعن ذلك يقول ابن حزم: "إنها لفضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها، أن يقوم أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى بإمرة المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد، وهم خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمّود بالجزيرة، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن حمود ببشتر"[3].

([1]) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحليل ومقارنة: سيزا قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، 2014م، ص37.

([2]) أبو زهرة، ص37.

([3]) عنان، 38/3. نقط العروس لابن حزم المنشور بمجلة كلية الآداب، ديسمبر ١٩٥١م، ص83، 84.

ونضيف إلى ذلك ولاء ابن حزم للأمويين". ومن غرائب القدر أن يكون ابنًا لابن حزم - وهو أبو رافع الفضل - دخل في دعوة المعتمد بن عباد وأخلص في خدمته، وقُتل في موقعة الزلاقة، محاربًا إلى جانب ألد أعداء أبيه([1]).

وتتسم هذه الحقبة بالفوضى والاضطراب، واشتعال الحروب الأهلية التي يستعين فيها المسلمون باليهود والنصارى على إخوانهم المسلمين؛ تحقيقًا لمطامع رخيصة، دفع ثمنها الأندلس فُرقةً واستنفادًا لموارده وقواه.

يقول ابن حزم: "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا، فأخلوها من الإسلام وعمّروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلّط عليهم سيفًا من سيوفه"[2()]. وبقيت قرطبة بيد العباديين حتى دخول المرابطين سنة ٤٨٤هـ. ويختزل ابن رشيق القيرواني هذه المحنة في بيتيه الشهيرين:

مما يُزهدني فـي أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومـــعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

***

مولده:

لم يدع أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم مجالًا للجدل حول مولده، مكتفيًا بما أثاره من جدلٍ حول شخصيته و أفكاره، فذكر لنا صاعد أحد أخلص تلاميذه "كتب إليَّ أبو محمد ابن حزم بخطه يقول: ولدتُ بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس، وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم، وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بطالع العقرب"[(3)]. وهو ما اتفق عليه معظم مترجموه.

نشأته:

في عام ٣٨١هـ، استوزر المنصور بن أبي عامر أحمدَ بن سعيد بن حزم (والد الإمام

([1]) آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، 2011م، ص254.
([2]) الرسائل، 176/3.
([3]) جذوة المقتبس، ص 309، الصلة، 606/2، معجم الأدباء، 165/4.

أبي محمد بن حزم)، وكان من أقدر وزراء المنصور، و آثرهم إليه، كما سبق وأشرنا في حديثنا عن الوجه السياسي لعصر ابن حزم. وبعد ثلاثة أعوام من تولّي أحمد بن سعيد بن حزم الوزارة، رزقه الله عليًّا بن أحمد بن سعيد بن حزم، فكنَّاه بأبي محمد. وفي قصر أبيه في الجانب الشرقي في قرطبة بربض منية المغيرة المجاور لقصر المنصور بمدينة الزاهرة، تفتحت عينا أبي محمد على عيش رغيد وترفٍ ونعيم، وبصحبة أخيه أبي بكر، الذي كان يكبره بخمس سنوات، بدأ خطو اته الأولى في الحياة في كنف أبيه الوزير، الذي احتلت أسرته مكانها الرفيع بين كبار العائلات في الأندلس، حتى امتلكت قرية بأكملها هي (منت ليشم). ويعد أحمد بن سعيد والد ابن حزم مؤسس ملك هذه العائلة، وأشهر أفرادها، يقول عنه ابن حيان: "الوزير المعقل في زمانه الراجح في ميز انه... هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس ر ابية، وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدعاء والرجولة"[1].

"وقد ترك أحمد منزله لأول مرة في بلاط مغيث في الجانب الغربي من قرطبة إلى منية المغيرة في الجانب الشرقي من المدينة، مكان قريب من الزاهرة المدينة التي بناها المنصور لتكون مقرًا لحكمه"[2].

وقد كان أحمد بن سعيد عالمًا بالشعر والبلاغة والأدب، يقيم في قصره المجالس العلمية والمناظرات، حتى قال عنه ابن العماد: "كان مفتيًا لغويًّا متبحرًا في علم اللسان"[3]. وقد اشتهر عنه تعجبه ممن يلحن في مخاطبته أو يأتي بلفظ قلق في مكاتبته، وعن أسرته قال الفتح بن خاقان: "بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب".

هذه هي الشخصية التي أثرت في ابن حزم، وتأثر بها فكريًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا؛ شخصية والدٍ ذي فكر وعلم وأدب، وطموح وذهن متوقد وعقل مستنير، وثراء ونفوذ تمتع بها ابن حزم نشأةً ناعمةً ومترفة في حجور النساء العالمات المربيات، اللو اتي تولين رعايته، يقول ابن حزم: "لقد شاهدت النساء، وعلمت من إسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا و أنا في حد الشباب، وحين تفيل وجهي. وهن علمنني القرآن، وروينني كثيرًا من الأشعار، ودربنني في الخط، ولم يكن كدي وإعمال ذهني مذ أول فهمي، و أنا في سن

(1) الذخيرة لابن بسام، 170/1.

(2) الطاهر مكي، دراسات هن ابن حزم، ص65.

(3) شذرات الذهب، 163/3.

الطفولة جدًّا إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك و أنا لا أنسى شيئًا مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت به، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل"[1] .

فأرهف ذلك حسَّه، إلّا أنه أورثه سوء الظن. ويرى الدكتور الطاهر مكّي أن لهذه النشأة أثرها السيئ على ابن حزم: "لقد أظهرنه في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية، ومناورات القصور، وحيل النساء، فنشأ صبيًّا سريع التأثر، كثير المرض، ملحوظ العصبية، متوقد الذكاء، مطبوعًا على الغيرة، سيئ الظن بالمرأة. وقد خبرها عن قرب، وأشرف من أسرارها على غير قليل"[2]. كان أحمد بن سعيد حريصًا على تنشئة ابنه نشأة كريمة وقوية؛ فأحاطه بعنايته، ولم يغفل عن رقابته بين مربياته، وما إن اشتدَّ عوده حتى عهد به إلى الشيخ أبي الحسن الفارسي؛ ليتعهّد تعليمه.

"كان السبب فيما ذكرته أني كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصورًا محظرًا عليّ بين رقباء ورقائب، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا الحسين بن علي الفارسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن زيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو الحسين المذكور عاقلًا عاملًا عالمًا ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا، والاجتهاد للآخرة، وأحسبه كان حصورًا، لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة، علمًا وعملًا، ودينًا وورعًا، فنفعني الله به كثيرًا، وعلمت موضع الإساءة وقبح المعاصي، ومات أبو علي رحمه الله في طريق الحج"[3].

وقد غشي ابن حزم مجالس أبيه العلمية والرسمية؛ فها نحن نراه وهو في الثانية عشرة من عمره في احتفالات المظفر بعيد الفطر عام ٣٩٦هـ، وهناك التقى بصاعد الذي قويت صلته بوالده، وأصبح من شهود مجلسه، وقد حدثنا ابن حزم في الطوق كيف أن ضنا العامرية كريمة المظفر طلبت منه أبياتًا لتصنع لها لحنًا يُغنى[4].

وفي عام ٣٩٩هـ يتوفى الله عبد الملك المظفر، ويجلس مكانه أخوه عبدالرحمن شنجول؛ ذلك الأهوج الطائش. وبوفاته ينتقل الأندلس و ابن حزم وأسرته من حالٍ إلى حالٍ، فإذا بالأيام تكشّر عن أنيابها وتعرّي مخالبها، فيُقتل عبدالرحمن شنجول بعد ثلاثة أشهر من توليه الحكم، ويجلس مكانه المهدي، ثم يخفي المهدي الخليفة هشام المؤيد

(1) الطوق، ص140، 141.

(2) مكي، دراسات عن ابن حزم، ص66.

(3) الطوق ص275.

(4) مكي دراسات، ص67.

ويدَّعي موته، يقول[1]: "وقد شاهدنا نحن مثل ذلك، لينفتح على الأندلس باب الفتنة على مصراعيه، ولم ينج من لهيبه سوى الخمسة عشر عامًا التي مرت من حياة ابن حزم إلى ذلك اليوم، وليصطلي ما قبُل من عمره بلظاها، يقول صاحبنا: "فمن ذلك اليوم سُلَّ سيف الفتنة ولم يغمد إلى يومنا هذا"[2] .

تقلبت قرطبة في أتون الفتن، وعملت فيها الجيوش بالسلب والنهب والتشريد، حتى اضطر أحمد بن سعيد والد ابن حزم أن يترك قصره في منية المغيرة والعودة إلى داره القديمة في بلاط مغيث: "انتقل أبي - رحمه الله - من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزهراء إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث... وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ"[3] .

زاد الاضطراب بقرطبة، ولم تهدأ بها الفتن والنكبات السياسية والطبيعية؛ إذ اشتد الصراع بين المهدي وسليمان المستعين، وقد حاصرها الأخير وقَتَلَ المهديَ، وتآمرت معه الطبيعة فنكبتها السيول والأمراض، والتقم الطاعونُ أبا بكر الأخ الأكبر لابن حزم في سنة ٤٠١هـ.

وامتدت الأزمة لتصل إلى الجانب الغربي؛ حيث نزح آل حزم، ولم يلبث ابن حزم أن نُكِب بوفاة والده بعد وفاة أخيه بعام، وهو في هذه الأثناء العصيبة، "وأرزمت[4] الفتنة، وألقت باعها، وعمت الناس، وخصتنا، إلى أن تُوفِّيَ أبي الوزير، ونحن في هذه الأحوال بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربعمائة، واتصلت بنا تلك الحال بعده"[5] .

وكأن الأقدار أبت على ابن حزم إلا أن تصهره بتعاقب النكبات، فبعد وفاة أخيه في سنة ٤٠١هـ، ثم أبيه في سنة ٤٠٢هـ، تأتي السنة ٤٠٣هـ لتفجعه في محبوبته نعْم التي ملكت عليه نفسه وقلبه: "وعنِّي أخبرك: أنّي أحد من دُهِيَ بهذه الفادحة، وتعجّلت له هذه المصيبة. وذلك أنّي كنت أشدَّ الناس كلفًا، وأعظمهم حبًّا بجارية لي كانت فيما خلا، اسمها نُعْم، وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خَلْقًا وخُلُقًا ومو افقة لي، وكنت أبا عُذْرها، وكنّا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومرُّ النهار، وصارت ثالثة التراب

(1) مكي دراسات، ص70.

(2) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص102.

(3) الطوق ص250.

(4) اشتدت، من أرغمت الريح أي اشتد صوتها

(5) الطوق ص251.

والأحجار، وسنّي حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن.

فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرّد عن ثيابي، ولا تفترلي دمعةٌ على جمود عيني، وقلة إسعادها، وعلى ذلك، فو الله ما سلوتُ حتّى الآن (أي بعد خمس عشرة سنة). ولو قُبِلَ فداءٌ لفديتُها بكلّ ما أملك من تالدٍ وطارفٍ، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليَّ مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيشٌ بعدها؛ ولا نسيت ذكرها، ولا أَنِسْتُ بسواها، ولقد عفّى حبّي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده، وممّا قلتُ فيها: [من الطويل]

مهذبةٌ بيضاء كالشمس إن بدت وسائر ربّات الحِجَالِ نُجُومُ

أطارَ هواها القلبَ عن مستقرّهِ فبعدَ وقوعٍ ظلَّ وهو يحومُ

ومن مراثيَّ فيها قصيدةٌ منها: [من الطويل]

كأنّي لم آنسْ بألفاظكِ التي على عُقَدِ الألباب هُنَّ نَوافثُ

ولـم أتحكَّم في الأماني كأنَّني لإفراط ما حُكِّمْتِ فيهنّ عابثُ

وفيها:

ويبدين إعراضًا وهنَّ أوالفٌ ويقسِمن في هجري وهنَّ حوانث[1]

وبدخول المستعين قرطبة أطلق يد البربر فيها تعمل بالنهب والاضطهاد، وهو ما جعل العامريين ينزحون عنها إلى شرق الأندلس؛ حيث أقاموا هناك عددًا من الدول، يقول صاحبنا: "ألقت الفتن جرانها، وأرخت عزاليها ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة.... ونقلت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسكني مدينة ألمرية"[2].

ويذكر ابن حزم أن ذلك كان في عام ٤٠٤هـ، "ثم ضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة"[3].

لم يدر ابن حزم، وهو يخرج من قرطبة إلى ألمرية، وقد كان عليها يومئذٍ خيران العامري، أنّه ودّع عهدًا من الاستقرار لن يعود، ولم يبق له من أيام الترف والنعيم إلا ذكريات تعيث بمجونٍ في ذاكرته؛ إذ إن خيران العامري بعد مقتل سليمان المستعين الأموي، واستيلاء علي بن حمود على قرطبة، توجَّس مما عُرِف عن تشيّع ابن حزم لبني أمية، فاعتقله مع صديقه محمد بن إسحاق، وفي ذلك يقول ابن حزم: "وفي إثر ذلك نكبني (خيران) صاحب ألمرية؛ إذ نقل إليه من لم يتَّقِ الله عزّوجلّ من الباغين - وقد انتقم

(1) الطوق، ص217.

(2) الطوق، ص261.

(3) الطوق، ص252.

الله منهم عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي - أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتُقلنا عند نفسه أشهرًا، ثم أُخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هُذيل التجيبي، المعروف بابن المقفل، فأقمنا عنده شهورًا في خير دار إقامة، وبين خير أهلٍ وجيران، وعند أجلِّ الناس همة، وأكملهم معروفًا، وأتمهم سيادةً.

ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد، وساكناه بها... ثم دخلتُ أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون ..."[1]. وانضم ابن حزم إلى المرتضى وزيرًا "وقد عاونه ابن حزم - يعني المرتضى - حتى كان وزيرًا من وزرائه وخب معه ووضع"[2].

وسار معه في جيشه إلى غرناطة، وعلى أبوابها تصدى لهم حاكمها زاوي بن زيري الصنهاجي، ودارت معركة قُتل فيها المرتضى، وأُسِر ابن حزم ثمّ فك أسره بعد مدة وعاد إلى قرطبة، وقد صارت أطلالًا، وقد كان ذلك في عام ٤٠٩هـ "خرجت من قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة"[3].

ومكث ابن حزم في قرطبة حتى خلافة المستظهر في رمضان سنة ٤١٤هـ، وقد كان صديقًا للمستظهر، فاختاره من بين وزرائه مع صديقه وابن عمه عبد الوهاب بن حزم، إلّا أن الناس تألّبتْ ضد المستظهر وقتلوه بعد شهر ونصف من خلافته. وإذا كان نصيب ابن حزم في الوزارة الأولى الأسر، ففي هذه المرة كان نصيبه غيابات السجون، وكما ذكرنا قبلًا فلم يبق فيها طويلًا.

وبعد خروجه من السجن يرحل عن قرطبة إلى شاطبة[4]، ويبقى فيها حتى بيعة هشام المعتد في ربيع الأول سنة ٤١٨هـ، فيعود إليها ويكون أحد وزرائه، وجاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي: "كان الفقيه أبو محمد وزيرًا لعبدالرحمن المستظهر بالله بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر لدين الله، ثم لهشام المعتد بالله بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر"[5].

وفي عام ٤٢٢هـ يثور الناس على هشام المعتد، ويتم خلعه؛ "فنودي في الأسواق

---

(1) الطوق، ص262/263.

(2) أبو زهرة، ص35.

(3) الطوق، ص252.

(4) الرسائل، 216/1.

(5) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغربي الإسلامي، 1993م، 237/12.

والأرباض لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد، وكان القائم بالحال في إخراج المعتد بالله أبا الحزم بن جهور، فمن هذا التاريخ كثرت الفتنة وتمادت، و انتزى كل أحد في موضعه، واستبد رؤساء الأندلس وثوارها (بما) في أيديهم من البلاد والمعاقل، وبغى بعضهم على بعض ولله الحول والقوة"[1].

وبخلع هشام المعتد تنتهي الخلافة الأموية بالأندلس للأبد، وكذا ينتهي انشغال ابن حزم بالسياسة؛ حيث خلص بعدها للعلم والكتابة.

مسيرته العلمية:

نشأ صاحبنا في بداية حياته نشأةً مترفة في كنف أبيه الوزير، الذي هيّأ له سبل تحصيل العلم منذ نعومة أظافره؛ فعهد به طفلًا إلى الجواري المؤدبات يحفظنه القرآن، ويعلمنه الخط واللغة، ويروين له الأشعار، كما ذكر هو في الطوق وسبقت الإشارة إليه، كما كفل له غير الترف والغنى قدوةً علميةً وثقافيةً وفكريةً ذات شأن واعتبار، تمثّلتْ في شخصه الواعي والمثقف والطموح؛ فقد كان لغويًّا بليغًا، كما كان مهتمًا بالتاريخ وأخبار الرجال، وله في ذلك كتاب "التاريخ والتعديل والتجريح". وإذا عرفنا أنه كان يقصّ على ابنه أبي محمد كثيرًا من الأحداث والتفاصيل التي خبرها بوصفه وزيرًا وهو بصحبة المنصور بن أبي عامر؛ "ولذلك كان ابن حزم - عن طريقه - مطلعًا على كثير من دقائق الأمور التي تجري في بلاط المنصور أو في معاركه"[2]. وبذلك كان والد ابن حزم أحد أهم وأول مصادره في التاريخ.

كما كانت لوالده مجالس علمية وأدبية التقى فيها ابن حزم طفلًا بكثير من الرجال والشعراء والعلماء، بالإضافة إلى أنه كان يصحبه إلى مجالس الحاجب المظفر، وهناك سمع أبا العلاء صاعد بن الحسن ينشد قصيدته التي مطلعها:

إليك حدوتُ ناجية الركاب محمّلة أمانيَ كالهضاب

ثم عهد به أبوه إلى عددٍ من مشايخ عصره الذين لازمهم و انتفع بعلمهم[3]. وعن أول طلبه للعلم، قيل إن "سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر، والخلق فيه فجلس ولم يركع، فقال له أستاذه يعني الذي رباه بإشارة: قم فصل تحية المسجد، فلم يفهم فقال بعض المجاورين له: أبلغت

---

(1) البيان المغرب، 152/3.

(2) إحسان، عباس تاريخ الأدب الأندلسي، ص249.

(3) انظر: الطوق، 275، جذوة المقتبس، ص107، الصلة، 416/2، بغية الملتمس، ص143.

هذه السن، ولا تعلم إن تحية المسجد واجبة، وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عامًا، قال: فقمت وركعت وفهمت إذًا إشارة الأستاذ إليَّ بذلك.. قال: فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد مشاركة للأحياء من قرابة الميت دخلت المسجد فبادرت بالركوع فقيل لي: اجلس اجلس ليس هذا وقت صلاة، فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ما هانت علي به نفسي. وقلت للأستاذ: دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبدالله بن دحون، فدلني فقصدته من ذلك المشهد، وأعلمته بما جرى فيه وسألته الابتداء بقراءة العلم، واسترشدته، فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس رضي الله عنه، فبدأت به عليه قراءته من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه، وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبدأت المناظرة"[1] . وهذه القصة استنكرها غير واحدٍ من المحققين، مثل الشيخ محمد أبو زهرة[2] والشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري[3] .

طلب ابن حزم العلم؛ فقد جاء في سير أعلام النبلاء عن عمر بن واجب قال: "بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرّس المذهب، إذ بأبي محمد ابن حزم يسمعنا ويتعجّب، ثم سأل الحاضرين عن شيء من الفقه أجيبَ عليه فاعترض فيه، فقال له بعض الحضار: هذا ليس من منتحلاتك! فقام وقعد، ودخل منزله فعكف، ووكف منه وابلٌ فمل كفَّ، ما كان بعد أشهرٍ قريبةٍ حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة قال فيها: أنا أتبع الحقَّ وأجتهد، ولا أتقيَّد بمذهبٍ"[4].

اتجه ابن حزم إلى المذهب السائد في الأندلس آنذاك، مذهب الإمام مالك، "فقرأ الموطأ على عبد الله بن دحّون المالكي وتفقه على مذهب مالك - رحمه الله -[5]، ورُوي عنه أنه قال: "إن مذهبين انتشرا بقوة السلطان: مذهب أبي حنيفة بالمشرق، ومذهب مالك بالمغرب"؛ إشارة إلى أن مذهب مالك كان المذهب الرسمي للدولة.

ثم نراه يتحول إلى مذهب الإمام الشافعي، يقول ابو مروان ابن حيان "ومال أولًا إلى النظر على رأي الشافعي، وناضل عن مذهبه حتى وُسِم به، فاستُهدف بذلك لكثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ، ثم عدل إلى قول أصحاب الظاهر، فنقحه، وجادل عنه، وثبت

(1) معجم الأدباء، 241/12، 242.

(2) أبو زهرة، ص27، 28.

(3) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، ابن حزم في ألف عام، 47/2، 48.

(4) السير، 544/13.

(5) تذكرة الحفاظ للذهبي، 1150/3.

عليه إلى أن مات"[1].

"ونجد أن روح النقد والتحرر الفكري الذي ظهر في ابن حزم يتلاقى مع المأثور من كتابات الشافعي، فإنك ترى في مأثورات الشافعي مع كتاب (اختلاف مالك) اختلاف العراقيين، والرد على سير الأوزاعي، وجماع العلم، وكلها كتب نقد وجدل وإن هذا يتفق كل الاتفاق مع روح ابن حزم ونزوعه الفكري"[2].

ويقول الأفغاني: "ولا جرم ففي جبلّة ابن حزم ثورةٌ فطريةٌ على التقليد، فلمّا اشتدّ واستحكم عدل عن مذهب الشافعي، واجتهد لنفسه على قواعد أهل الظاهر، ولزم دعوةَ الظاهرية ينشرها ويؤيدها في أكثر تصانيفه، وينافح عنها خصومها بقوة وعنف ونشاط حتى مات رحمه الله"[3].

د - أهم شيوخ ابن حزم وتلاميذه:

إن كيانًا معرفيًّا ثقافيًّا فكريًّا موسوعيًّا يمثله ابن حزم، تعدَّدت مشاربه وفيوضاته، لابد وأن تحفل مسيرته بكثير من العلماء والشيوخ الذين تلقّى عليهم وأخذ منهم، كما تتوهّج بعدد كبير من التلاميذ الذين أخذوا عنه ودانوا له.

ولسنا نحصر هنا شيوخه وتلاميذه، ولكنّا نشير إلى أهم من أخذ عنهم، وأخذوا عنه، وقد ذكر عددًا كبيرًا منهم في الطوق. ومن أهم شيوخه: أبو الحسن الفارسي، وقد صحبه في أول حياته، وكان عالمًا زاهدًا، وقال فيه ابن حزم: "ما رأيت مثله جملة؛ علمًا وعملًا وديانًا وورعًا"[4].

ويذكر الحميدي أن أول سماع ابن حزم كان من أبي عمر بن الجسور؛ "قال أبو محمد بن حزم: وهو أول شيخ سمعتُ منه قبل الأربعمائة، ومات في منزله ببلاط مغيث بقرطبة يوم الأربعاء لأربعٍ بقين من ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة"[5]. ومن شيوخه في الحديث أيضًا الهمذاني[6]. وقد جاء في الطوق: "حدثنا الهمذاني في مسجد القمري

([1]) السير، 13/ 547، 548.

([2]) أبو زهرة، ص 31.

([3]) الأفغاني، ص 93.

([4]) الطوق، 145.

([5]) الصلة، 24/1، والجذوة، ص107.

([6]) الهمذاني، عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهَمَذاني الوَهْرَاني، ويعرف: بابن الخرَّاز، من أهل بَجَّانة، يُكنى: أبا القاسم. قال أبو عمر بن الحذاء: "كان رجلًا صالحًا منقبضًا، داره ببجانة قرب دار ابن آبي الحصن، كان معاشه من ثياب كان يبتاعها ببجانة، ويقصرها، ويحملها إلى قرطبة، فتباع له، ويبتاع في ثمنها ما يصلح لبجانة، ويجلب كتبه فيقرأ عليه في خلال ذلك. وكان يرد قرطبة كل عام إلى أن وقعت الفتنة،

بالجانب الغربي من قرطبة سنة إحدى وأربعمائة"[1] .

"سمع ابن حزم أيضًا من أبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي[2]، ويحيي بن مسعود ابن وجه الجنة[3]، ويونس بن عبدالله [ابن مغيث] القاضي[4]، و أبي بكر حُمام بن أحمد القاضي[5]، ومحمد بن سعيد بن نبات[6]، وعبدالله بن ربيع التميمي[7]، وعبدالله بن

فإذا سكنت الحال سكن داره ببجانة، وإن خاف صار بألمرية، فكان على ذلك متقللًا إلى أن مات رحمه الله سنة إحدى عشرة وأربعمائة. الصلة، 317/1.

([1]) الطوق، 145.

([2]) الطلمنكي، أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ الطلمنكي أبو عمر، محدث منسوب إلى بلده، وكان إمامًا في القراءات مذكورًا، وثقةً في الرواية مشهورًا، وسمع بالأندلس محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج القاضي، و أبا جعفر أحمد بن عون الله، وطبقتهما. مات بعد العشرين وأربعمائة. روى عنه أبو محمد بن حزم، و أبو عمر بن عبد البر، وجماعة. الجذوة، ص114.

([3]) ابن وجه الجنة، يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود بن موسى، يعرف بابن وجه الجنة. من أهل قرطبة، يُكنى: أبا بكر.

سمع: من قاسم، و ابن أبي دليم، وأحمد بن سعيد بن حزم، وأحمد بن مطرف، ومحمد بن معاوية القرشي. وكان رجلًا صالحًا أحد العدول عند ابن السليم، و ابن زرب. وتوفّي في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعمائة. وكان مولده سنة أربع وثلاثمائة. الصلة، 663/2، الجذوة، ص377.

([4]) ابن مغيث، يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث بن محمد بن عبد الله، قاضي الجماعة بقرطبة، وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها، يُكنى أبا الوليد، ويعرف بابن الصفار. روى عنه من مشاهير العلماء أبو محمد مكي بن أبي طالب المقرئ، و أبو عبد الله بنو عابد، و أبو عمر بن سَمِيْق، و أبو محمد بن حزم، و أبو القاسم حاتم بن محمد، و أبو الوليد الباجي، وغيرهم كثير. توفّي - رحمه الله - ليلة الجمعة، ودفن يوم الجمعة بعد العصر لليلتين بقيتا من رجب سنة تسع وعشرين وأربعمائة. الصلة، 2/ 684 ــ 686، والجذوة، ص384، 385.

([5]) حمام بن أحمد، حُمَام بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أكدر بن حمام بن حكم بن سليمان بن عبد الرحمن بن صالح الأطروش، من أهل قرطبة يُكنى أبا بكر.

ذكره أبو محمد محمد بن حزم، وقال: كان واحد عصره في البلاغة، وفي سعة الرواية، ضابطًا لما قيده. روى عن أبي محمد الباجي، و ابن عائذ، و ابن مفرج فأكثر. توفّي - رحمه الله - بقرطبة في رجب سنة إحدى وعشرين وأربعمائة. الصلة 155/1، 156، والجذوة، ص199.

([6]) محمد بن سعيد بن نبات، محمد بن سعيد بن محمد بن عمر بن سعيد بن نبات الأموي، من أهل قرطبة، يُكنى: أبا عبد الله.

وكان معتنيًا بالآثار جامعًا للسنن، ثقةً في روايته، ضابطًا لكتبه، وكان شيخًا فاضلًا، صالحًا ديّنًا ورعًا، منقبضًا عن الناس، مقبلًا على ما يعنيه.

قال ابن حيَّان: تُوفّي - رحمه الله - منتصف المحرم من سنة تسع وعشرين وأربعمائة، عن سن عالية ثلاث وتسعين سنة غير أيام. الصلة، 519/2، 520، والجذوة، ص60.

([7]) عبدالله بن ربيع التميمي، عبدالله بن ربيع بن عبدالله بن محمد بن ربيع بن صالح بن مسلمة بن بنّوش

محمد بن عثمان[1]، وعبدالله بن يحيى بن أحمد الأموي[2]، وعبدالله بن يوسف بن نامي[3]، كما أخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي"[4]، وغيرهم.

"وقد تلقى الفقه في أول أمره، كما قال ياقوت في معجمه، وكما قال هو في الرسالة عن عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه الذي عليه مدار الفتيا في قرطبة. ولقد تلقى الفقه والحديث على عبد الله الأزدي المعروف بابن الفرضي. وقد كان ابن حزم معجبًا بشيخه هذا في صدق علمه، ومحافظته على الحقائق العلمية أن يخلط بها غيرها بالباطل. وكان فقيهًا عالمًا بالحديث ورجاله، بارعًا في الأدب والتاريخ، وله من الكتب تاريخ علماء الأندلس إلى المشرق، فحج وسمع من العلماء وأخذ عنهم. وكتب عن أماليهم، وروى عن شيوخ عدة من أهل المشرق. وقد ولد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وتولى القضاء بمدينة بلنسية، وقتله البربر يوم فتح قرطبة، لستٍّ خلت من شوال سنة ٤٠٣هـ."[5].

وإذا علمنا أن قرطبة في ذلك الوقت زاخرة بالعلماء من كل فن وعلم، وأن نهضتها

التميمي، من أهل قرطبة، يُكنى: أبا محمد.

وذكره الخولاني في رجاله الذين لقيهم، فقال: "كان من أهل العلم والحديث مع العدالة. وله عناية قديمة مشهورة معلومة، لقي جماعة من الشيوخ الرّواة للعلم، وكتب عنهم، وسمع منهم".

وحدَّث عنه أيضًا أبو عبدالله محمد بن عتاب الفقيه، و أبو محمد بن حزم، وألجبو مروان الطبني، و أبو عمر بن مهدي المقرئ، وقال: كان أبو محمد – نضر الله وجهه - كثير الرواية مقيّدًا لها، عالي الدرجة فيها، ثقة مأمونًا، ذا دين وفضل. ولد في النصف من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة. وتوفي -غفر الله ذنبه - يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأول سنة خمس عشرة وأربعمائة. "الصلة، 261/1، 262.

(1) عبد الله بن محمد بن عثمان، عبد الله بن محمد بن عثمان، روى عن أحمد بن خالد، روى عنه أبو محمد عبد الله بن الربيع التميمي؛ قرأنا جميع "مسند" حماد بن سلمة من طريقه على أبي محمد الحافظ علي بن أحمد، قال: أخبرنا عبد الله بن ربيع، قال: أخبرنا عبدالله بن محمد بن عثمان، حدثنا أحمد عن خالد، حدثنا علي بن عبدالعزيز، حجاج بن المنهال، قال: حدثنا حماد بن سلمة. الجذوة، ص252.

(2) عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموي، يعرف: بابن دَحُون، من أهل قرطبة، يكنى: أبا محمد. أخذ عن أبي بكر بن زرب، و أبي عمر الإشبيلي وغيرهما من جلة العلماء. وكان من جلّة الفقهاء وكبارهم، عارفًا بالفتوي، حافظًا للرأي على مذهب مالك وأصحابه، عارفًا بالشروط وعللها، بصيرًا بالأحكام مشاورًا فيها. توفّي أبو محمد بن دحون في سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. الصلة، 1/ 267، 268.

(3) عبد الله بن يوسف بن نامي بن يوسف بن أبيض الرهوني، من أهل قرطبة، يُكنى: أبا محمد، ذكره ابن مهدي، وقال: "كان رجلًا صالحًا خيّرًا فاضلًا لا يقف بباب أحد، وقرأ القرآن على أبي محمد مكي بن أبي طالب. ولد سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة. قال أبو مروان الطبني: وتوفّي - رحمه الله - يوم الثلاثاء لتسع خلون من شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة. واختلط في آخر عمره؛ فتُرك الأخذ عنه. الصلة، 270/1.

(4) الأفغاني، الإمام ابن حزم الأندلسي (لمحات من سيرته، وأضواء على عبقريته)، ص69.

(5) أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، ص٦٩.

العلمية والفكرية لم ينل منها ارتباكُها وتوترها السياسي: "ولا يحسبن أحدٌ أن الناس في هذه القلاقل كابدوا شظفًا من العيش، أو ضيقًا في أساليب الحياة، بل إن الأمر على العكس، لقد رتعوا في بحبوحة من عيشٍ رغدٍ، ورخاء دائمٍ، ونعيمٍ مقيم، وعلوم زاخرة وحياة فكرية خصبة"[1].

أمكننا أن ندرك كيف أن العلم كان بضاعة رائجة في ذلك الوقت، وتلك البلاد، وكيف توفّر لابن حزم عدد كثير جدًّا من الشيوخ، هم فحول علماء عصره، سمع منهم وروى عنهم، لا يتسع المقام هنا لسوى الإشارة اليسيرة إليهم بما يشي بتنوع مصادره وروافده العلمية والفكرية؛ حيث اختصت دراسات أخرى بما يستوجب محاولة حصرهم[2].

قلنا إن العلم كان بضاعة رائجة في قرطبة في ذلك الوقت، وهو ما يعني أن ثمة من يثمنها، ويعي بحق قدرها، خاصة في مجتمع يرتقي فيه العلماء مكانهم الرفيع فوق طبقاته. وقد أسهم ابن حزم بما أسهم في هذا المجتمع بعدد غفير ممن حمد فيهم التاريخ، وشكر لهم دورَهم العلمي والمعرفي والثقافي، نذكر منهم: تلميذه أبا عبد الله الحميدي، وابنه الفضل أبا رافع، والإمام الوزير أبا محمد ابن العربي، وهذا الأخير صحبه سبعة أعوام، وقرأ عليه أكثر تصنيفاته....

وممن سمع عليه أيضًا علي بن سعيد العبدري....

ومنهم: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المتوفى سنة (٥٢٠هـ)، وهو أحد علماء المسلمين الأعلام، ينسب إلى طرطوشة من بلاد الأندلس؛ نشأ بها، وطلب العلم في البلاد الأندلسية، وأخذ عن أبي الوليد الباجي، وابن حزم، ورحل إلى الشرق سنة (٤٧٦هـ)[3].

مكانته:

(1) الأفغاني، الإمام ابن حزم الأندلسي (لمحات من سيرته، وأضواء على عبقريته)، ص55.

(2) للمزيد عن هذا الموضوع انظر: "ابن حزم الأندلسي ومنهجه في دراسة العقائد والفرق الإسلامية، للدكتور مجيد خلف منشد، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2002م، مصر، ص68 وما بعدها؛ قائمة بشيوخه وتلاميذه على حروف المعجم. كذلك رسالة ماجستير في الكتاب والسنة عن جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، للباحثة حنان بنت عيضة بن دوخي ابن عثمان الثبيتي، ص٣٥ وما بعدها؛ قائمة بشيوخه مصنفة بحسب الفن الذي اشتُهر عن ابن حزم أخذه عنهم في الحديث والفقه واللغة والتاريخ والسير وعلم الكلام، وما لم يميز فنهم.

(3) الأفغاني، الإمام ابن حزم الأندلسي (لمحات من سيرته، وأضواء على عبقريته)، ص70، 71.

يقول ابن حزم:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جُوِّ العُلُوْمِ مُنِيْرَةً وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنَّ مَطْلَـــــــعِيَ الغَرْبُ
وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ لَجَدَّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْـــرِيَ النَّهْبُ
وَلِي نَحْوَ أَكْنَافِ العِرَاقِ صَبَابَةٌ وَلاَ غَرْوَ أَنْ يَسْتَوحِشَ الكَلِفُ الصُّبُّ
فَإِنَّ يُنْزِلِ الرَّحْمَنُ رَحْلِيَ بَيْنَهُمْ فَحِيْنَئِذٍ يَبْدُو التَأَسُّفُ وَالكَـــــرْبُ
هُنَالِكَ يُدْرَى أَنَّ لِلْبُعْدِ قِصَّةٌ وَأَنَّ كِسَادَ الْعِلْمِ آفَتُهُ القُـــــرْبُ

جاء في معجم الأدباء: "أن ابن حزم اجتمع يومًا مع الفقيه أبي سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب كتابي: (المنتقى والاستغناء)، وغيرهما من التواليف وجرت بينهما مناظرة، فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سراج الحراس. قال ابن حزم: وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب، والفضة، أراد أن الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر"[1].

قال ابن خلكان: "كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفننًا في علوم جمة عاملًا بعلمه زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة، وتربي الملك متواضعًا ذا فضائل وتآليف كثيرة، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئًا كثيرًا، وسمع سماعًا جمًّا وألف في فقه الحديث كتابًا سماه كتاب: الإيصال إلى الفهم، وكتاب: (الخصال الجامعة نحل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع)، أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين - رضي الله عنهم أجمعين - وله كتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب: (إظهار تبديل اليهود والنصارى التوراة والإنجيل وبيان ناقص ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل)، وهذا معنى لم يسبق إليه، وكتاب: (التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية)، إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، وكان له كتاب صغير سماه: (نقط العروس)، جمع فيه كل غريبة ونادرة"[2].

قال العز بن عبد السلام: "ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلى لابن حزم

(1) معجم الأدباء، 12/ 239، 240.

(2) وفيات الأعيان، 3/325، 330.

والمغنى لابن قدامة"[1]. وقال إسماعيل بن عمر بن كثير: "(...) قرأ القرآن، واشتغل بالعلوم النافعة الشرعية، وبرز فيها، وفاق أهل زمانه، وصنف الكتب المشهورة؛ يقال إنه صنف أربعمائة مجلد في قريب من ثمانين ألف ورقة، وكان أديبًا طبيبًا شاعرًا فصيحًا له في الطب والمنطق كتب، وكان من بيت وزارة ورياسة ووجاهة ومال وثروة، وكان مصاحبًا للشيخ أبي عمر بن عبد البر النمري، وكان مناوئًا للشيخ أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي. وقد جرت بينهما مناظرات يطول ذكرها"[2].

وقال جلال الدين السيوطي: "كان صاحب فنون وورع وزهد، وإليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم، أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم مع توسعه في علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار"[3].

وقال أبو حامد الغزالي: "وجدت في أسماء الله الحسنى كتابًا، ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي، يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه"[4]. وقال إليسع بن حزم الغافقي: "أما محفوظه فبحر عجاج، وماء ثجاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجاجه ألفاف النعم في رياض الهمم. لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على كل أهل ودين، وألف (الملل والنحل)، وكان في صباه يلبس الحرير، ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير"[5].

وقال تلميذه أبو عبد الله الحميدي: "كان حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علومٍ جمةٍ، عاملًا بعلمه، ... ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس، والتدين، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم"[6].

وقال تلميذه أبو القاسم صاعد بن أحمد: "كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار. وأخبرني ابنه أبو رافع الفضل بن علي أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو

([1]) ابن خلكان، سير أعلام النبلاء، 545/13.

([2]) أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشـــقي، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1987م، 91/12.

([3]) السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص435، 436.

([4]) سير أعلام النبلاء، 542/13.

([5]) سير أعلام النبلاء، 544/13.

([6]) الصلة، 416/2، وجذوة المقتبس، ص308، وبغية الملتمس ص415.

أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة"[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر، ويوجد في كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال، والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة، ما لا يجتمع مثله لغيره، فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح، وله من التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء"[2].

ويقول الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ: "كان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم .. وكان صاحب فنون، فيه دين وتورّع وتزهّد وتحرٍّ للصدق... ابن حزم رجل من العلماء الكبار، فيه أدوات الاجتهاد كاملة، تقع له المسائل المحررة، والمسائل الواهية كما يقع لغيره، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3] .

ويقول في سير أعلام النبلاء: "ابن حزم الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب الظاهري، صاحب التصانيف"[4]. ويقول ابن خاقان: "وله في الأدب سبقٌ لا ينكر، وبديهةٌ لا يُعلم أنه ردى فيها ولا فكر"[5]. ويقول معاصره أبو مروان بن حيان، بالرغم مما كان بينهما: "كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق، والفلسفة، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة"[6].

ويقول ابن الحوات: "أنه لولا خوف المشغبين، وما دهينا به من رؤوس الجاهلية لكتبت أقوالك، ومذهبك، وبثثتها في العالم، وناديت عليها كما ينادى على السلع"[7]. ويقول عنه عبد الواحد المراكشي: "و أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن؛ فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله من الأندلس"[8].

([1]) الصلة، 416/2.

([2]) مجموعة الفتاوي لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني، المكتبة التوفيقية بدون تحقيق الطبعة والتاريخ.

([3]) تذكرة الحفاظ، ٣/ 227، 231.

([4]) سير أعلام النبلاء، 540/13.

([5]) ابن خاقان، مطمح الأنفس، تح: محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، 1983م، ص280.

([6]) معجم الأدباء، 11، 247.

([7]) رسائل ابن حزم، 187/3، 188.

([8]) أبو محمد عبد الواحد بن علي المراكشيّ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح الدكتور: صلاح الدين

ويقول عنه الدكتور زكريا إبراهيم: "وإنه لعلم فذ في تاريخ العروبة والإسلام، فإنه المنطقي، والجدلي، والمتكلم، والفقيه، والمؤرخ، والشاعر، وعالم النفس... إلخ. وسع علمه كل فنون المعرفة في عصره، وخلَّف وراءه ثمانين ألف ورقة من شعره ونثره"[1]. ونلاحظ أنه نعته في العنوان بـ(المفكر الظاهري الموسوعي).

غير أن الأمر لم يخل من بعض الحجارة التي لم تصل لتنال من سموق مكانته، وقد قيَّض الله له من يدرؤها عنه. ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء: "وقد حطَّ أبو بكر بن العربي على أبي محمد في كتاب "القواصم والعواصم" وعلى الظاهرية، فقال: هي أمة سخيفة، تسوّرت على مرتبة ليست لها، وتكلمت بكلام لم نفهمه، تلقّوه من إخوانهم الخوارج حين حكّم علي - رضي الله عنه - يوم صفين، فقالت: لا حكم إلا لله. وكان أول بدعة لقيتُ في رحلتي القول بالباطن، فلما عدتُ، وجدتُ القول بالظاهر قد ملأ به المغربَ سخيفٌ كان في بادية إشبيلية يُعرف بابن حزم، نشأ وتعلّق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكلَّ، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع، ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرًا للقلوب منهم".

ويعقّب الذهبي على ذلك "قلتُ: لم ينصف القاضي أبو بكر - رحمه الله - شيخَ أبيه في العلم، ولا تكلّم فيه بالقسط، وبالغ في الاستخفاف به، وأبو بكر -فعَلى عظمته في العلم- لا يبلغ رُتبة أبي محمد، ولا يكاد، فرحمهما الله وغفر لهما"[2].

وجدير بابن حزم أن يكون مثار الحسد والغيرة من معاصريه من العلماء والفقهاء، وقد نجحوا في تأليب العامة والحكام عليه، خاصة وقد كان حاد الرأي واللسان، يقول أبو العباس ابن العريف: "سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان[3].

وأثمر حقدهم أن أصدر المعتضد بن عباد قرارًا بهدم دوره ومصادرة أمواله وحرق كتبه، وهو ما سبب له ألمًا كبيرًا، فأنشد قائلًا:

"ومرَّ المنصور أيام إمرته بأونبة من أرض شِلْبَ، فوقف على قبر الحافظ أبي محمد ابن حزم، وقال: عجبًا لهذا الموضع، يخرج منه هذا العالم، ثم قال: كل العلماء عيال على

الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006م، ص93.

([1]) د. زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د. ت)، ص3.

([2]) سير أعلام النبلاء، 542/13. 544.

([3]) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 328/3.

ابن حزم"[1] .

مصنفاته:

تشعبت مؤلفات ابن حزم ومصنفاته إلى كثير من العلوم والفنون والآداب؛ بما أكّد أنه بحق صاحب مشروع فكري موسوعي. وذكر الحافظ الذهبي لابن حزم أكثر من سبعين كتابًا في مختلف الفنون والعلوم بما فيها الطب، وعدّد له فيه كتبًا[2].

قال تلميذه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد: "وأخبرني ابنه أبو رافع ابن علي أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد، تشمل على قريب من ثمانين ألف ورقة"[3].

غير أن الكثير من هذه المؤلفات لم يصلنا؛ لما تعرض له ابن حزم من نكبات، كان حقد بعض علماء عصره وفقهائه سببًا مباشرًا وغير مباشر في ذلك؛ حيث حذروا الناس والسلاطين منه ومن أفكاره، وقاموا بتأليب الحكام عليه والوشاية به؛ حتى أقدم المعتضد بن عباد بحرق كتبه، بالإضافة إلى محاربة المذهب الظاهري نفسه، وحدة طبع ولسان ابن حزم في الجدل والدفاع؛ ما ساعد على تأجيج الأحقاد ضده، وقد كان ذلك مما أسهم في حجب كثير من مؤلفات ابن حزم عن الوصول إلينا.

وقد قيض الله له بعض الباحثين لمحاولة حصر مؤلفاته وتوثيقها، كالشيخ عبدالرحمن بن عقيل الظاهري الذي يقول: "يعتبر الإمام ابن حزم من أكثر علماء الإسلام تأليفًا، وقد حصرتُ كتبه المطبوعة وكتبه التي لا تزال مخطوطة، وأحصيتُ له كتبًا وعد بتأليفها ومات قبل أن يؤلفها، وأحصيتُ له كتبًا تعددت أسماؤها ومسماها واحد، وأحصيتُ له فصولًا من كتبه اعتبرها بعض الباحثين مؤلفات مستقلة، وأحصيتُ له كتبًا نسبت له وليست من تأليفه، وأحصيتُ له كتبًا لا نزال نشك في وجودها، وأحصيت له كتبًا لا أدرى أهي المطبوعة أم المخطوطة أم لا تزال مفقودة أم موجودة؟! وأحصيت لهم كتبًا لم يوجد إلا بعضها"[4] .

وقد أحصى أبو عبد الرحمن في هذه المقالة سبعة وسبعين كتابًا من كتب ابن حزم المفقودة؛ أولها كتاب "مراتب العلماء وتواليفهم"، وهو غير مراتب العلوم، وآخرها كتاب (اختلاف الفقهاء الخمسة مالك و أبي حنيفة والشافعي وأحمد وداود).

---

(1) نفح الطيب، ج٣، ص٢٣٨.

(2) سير أعلام النبلاء، 545/13، 546.

(3) الصلة، 416/2.

(4) أبو عبد الرحمن بن عقيل، مجلة الفيصل، العدد 26، شعبان 1399هـ، يوليو 1979م، ص59.

وقال الأفغاني: "ولابن حزم مصنفات جليلة أكبرها، ثم عدّد ثمانين مصنفًا؛ أولها: (كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)، وآخرها (مقالة النخل)، وذكر في الهامش كتابيه (جمهرة أنساب العرب)، نشرته دار المعارف بتحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون، وكتاب (جوامع السيرة) بتحقيق الدكتورين إحسان عباس وناصر الدين الأسد[1].

كذلك ذكر الدكتور إحسان عباس في الرسائل ثلاثة وثمانين كتابًا مما لم يصلنا من كتب ابن حزم[2]. أما الدكتور أحمد بن ناصر الحمد فقد أحصى ستة وثلاثين ومائة كتابٍ مرتبة على حروف المعجم، والكثير مما أحصاه ذكره أبو عبد الرحمن بن عقيل في المفقودات[30].

ونشير هنا إلى بعض من مصنفات ابن حزم الموجودة:

1.طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق: الطاهر أحمد مكي، دار الهلال، القاهرة، 1412هـ/1992م. وهناك طبعات أخرى لهذا الكتاب.

2.جوامع السيرة ورسائل أخرى، تحقيق: إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، مراجعة: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

3.الرسائل الخمس، تعليق: أحمد حسن جابر، هدية مجلة الأزهر، جمادى الآخرة، 1413هـ، شعبان1413هـ.

4.البيوع المنهي عنها، تحقيق: إبراهيم إسماعيل القاضي وآخرين، دار الحرمين، القاهرة، ط1، 1419هـ/ 1998م.

5.المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار، تحقيق: عبدالغفار سليمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ/ 1988م.

6.الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1416،1هـ/ 1996م.

7.رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983م، ط2، 1987م.

8.رسالة في الرد على ابن النغريلة اليهودي، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة دار

([1]) الأفغاني، الإمام ابن حزم الأندلسي، ص236. 240.

([2]) الرسائل، 8/1 وما بعدها.

([3]) د. أحمد بن ناصر الحمد، ابن حزم وموقفه من الإلهيات، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ط1، 1406هـ، ص71 وما بعدها.

العروبة، القاهرة، 1380هـ/ 1960م.

10.جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983م.

11.الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث، القاهرة، ط3، 1413هـ/ 1992م.

12.مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

13.الأخلاق والسير في مداواة النفوس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1978م.

14.رسالة المفاضلة بين الصحابة، نشر وتحقيق: سعيد الأفغاني، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، 1389هـ/ 1969م.

15.الأصول والفروع، تحقيق: محمد عاطف العراقي وآخرين، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1978م.

16.حجة الوداع، تحقيق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، ط2، 1966م.

17.ديوان الإمام ابن حزم، تحقيق: صبحي رشاد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1410هـ/ 1990م.

18.ديوان ابن حزم، تحقيق: نعمان أمين طه، شرح ابن السكيت والسكرى والبستاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1378هـ/ 1958م.

19.علم الكلام على مذهب أهل السنة والجماعة، تحقيق: أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1989م.

20.الدرة فيما يجب اعتقاده، تحقيق: أحمد ناصر الحمد، سعيد بن عبد الرحمن القزمي، مكتبة التراث، مكة المكرمة، ط1، 1408هـ/ 1988م.

21.ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق، 1379هـ/ 1960م.

22.النبذة الكافية في أصول أحكام الدين، تحقيق: محمد سعيد البدري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة - بيروت، ط1، 1412هـ/ 1991م.

وفاة ابن حزم:

قال صاعد: "ونقلت من خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي (رحمه الله) عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة. فكان عمره - رحمه الله -

إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يومًا"[1]. وقد ذكر قدري حافظ طوقان أنه: "مات مقتولًا عام ٤٥٦هـ"[2]. غير أننا لا نطمئن إلى هذا القول، ولم نجده عند غيره.

خاتمة:

يركن البحث إلى رسوخ الإمام ابن حزم مكانة ودورًا في تاريخ الفكر الإنساني ومسيرته؛ فلم تكن حياته باليسيرة ولا بالسهلة كحياة سائر الأئمة؛ " فحياتهم - رضي الله عنهم - نمط فكري واحد، وإن كانت لهم آراء في نواح غير الفقه ، فهي على هامش تفكيرهم، وليست في صميم اتجاههم، أما ابن حزم فطراز آخر، فأنت تجده في الأدب ناثرًا فنياً ممتازًا لا يقل عن أي كاتب من كتاب عصره وبلده، وربما امتاز عليهم بجودة الفكرة مع جزالة الديباجة، وجمال الصورة البيانية، وهو فوق ذلك السياسي الذي نشأ في بيت الوزارة، وكان له هو شأن في الوزارة، ثم هو المحدث والفقيه والمؤرخ، وكل تلك نواح في صميم نفسه، وإن كانت المقادير مختلفة وهي متمازجة، تعاونت فكونت تلك الشخصية العبقرية"([3])؛ ومن ثَمَّ فهو موسوعي الطرح، يتجاوز بذلك ما أُشيع عنه بأنه: أديب الفقهاء إلى آفاق أكثر رحابة وتنوع؛ فأيما يمَّم الباحثُ وجهه لعلم، وجد لابن حزم سهماً فيه، كما كانت حياته مرآة صادقة ودقيقة، لعصر اتسم بالنهضة الفكرية والحضارية، كما اتسم بالصراعات السياسية، والفتن والطائفية، و إنك لواجد صدى كل ذلك عنده.

فقد كان ابن حزم من أكثر العلماء والفقهاء معاصرة لو اقعه الأندلسي وتفاعلًا معه وبه، بكل ما يزخر فيه من منازع فكرية تلاقحت بين المسلمين والعجم من جهة، وبين الفكر والحضارة الإسلامية العباسية في المشرق والمنتوج الثقافي والحضاري الأموي في الغرب الأندلسي ، من جهة أخرى، يشهد على ذلك تنوع مصنفاته؛ ما بين الفقه والحديث والمنطق والتاريخ، والسير والأنساب، وعلم النفس والاجتماع ومقارنة الأديان...إلى آخره، بالإضافة إلى آرائه غير المسبوقة في اللغة والنحو والأصوات؛ وإلى جانب هذه المؤلفات العلمية الخالصة، نجد طوق الحمامة في الألفة والألاف، مصنفًا في العشق والحب، وهو مظهر لم يخل منه الو اقع الأندلسي، لم يتأثم الإمام والفقيه أن يعرض له بشمولية وعمق.

([1]) الصلة، 417/2.

([2]) مجلة العربي العدد العاشر، صيف 1379هـ، سبتمبر 1959م.

([3]) أبو زهرة، ص10.

وقد حمل ابن حزم على كاهله الزود عن حمى الإسلام، أمام محاولات اليهود والنصارى النيل من ثوابت الإسلام بعلومهم المنطقية والفلسفية والكلامية؛ ما أجج عنده الحجاج والمناظرة، كما في رسالته في الرد على ابن النغريلة اليهودي. وربما كان ذلك سببًا في نقده اللاذع ، وجداله الشرس؛ الأمر الذي جعله مرمى لحقد كثيرمن فقهاء وعلماء عصره وحكامه ضغائنهم ؛ فسُجِن وتغرَّب، ولم يسلم منهم نَسَبه بالطعن فيه، مثلما وجدنا عند معاصره حيان بن خلف وممن تلقوا عنه من عرب ومستشرقين، ولم يثنه ذلك عن المنافحة عن مواقفه وقناعاته الفكرية والفقهية بضراوة وحِدَّة اشتُهِر بهما، حتى قيل: " لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقان" [1]، وظل بالرغم من اضطهاده، وحرق كتبه، علامة مضيئة في تاريخ الفكر الإنساني، وإمامًا معتبرًا في التاريخ الفقهي، بظاهرية لا تتقيد بمذهب.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: الكتب:

1 - آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومي للترجمة، مصر، 2011م.

2 - أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان،1968م.

3 - د. أحمد بن ناصر الحمد، ابن حزم وموقفه من الإلهيات، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ط1، 1406 هـ.

4 - ابن بشكوال، كتاب الصلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر2008م.

5 - ابن تيمية، مجموعة فتاوي شيخ الإسلام، المكتبة التوفيقية، (د. ت).

6 - د. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب،2004م.

7. الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، مصر،2008م.

8 - ابن حزم الأندلسي:

[1] القول منسوب لابن العريف الأندلسي

- طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق: فاروق سعد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،(د.ت).
- ديوان الإمام ابن حزم، جمع وتحقيق ودراسة: د. صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، ط1، طنطا، 1990م.
- رسائل ابن حزم، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط2،2007 م.
- جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، ط7، 2010م.

9 - ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، دار عمار مؤسسة الرسالة،1983 م.

10 . ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1977 م.

11 . الذهبي:
- تذكرة الحفاظ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار المعارف العثمانية، (د.ت).
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1997م.

12 - د. زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت).

13 - سعيد الأفغاني، الإمام ابن حزم الأندلسي، دار القلم، دمشق، ط1، 2013م.

14 - السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1،1983 م.

15- د. الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، دار المعارف، ط4، 1993م.

16 - عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، ط2، 1988م.

17 . أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، ابن حزم خلال ألف عام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م.

18 - علي بن بسام أبو الحسن الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981م.

19 - ابن العماد العكبري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق - بيروت،1986م.

20 . ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1987م.
21 . محمد أبو زهرة، ابن حزم حياته وعصره، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م.
22 . محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 2001 م.
23 . المراكشي أبو محمد عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح الدكتور: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، صيدا بيروت، 2006م.
24 . ياقوت الحموي، معجم الأدباء، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1993م.

ثانياً: الدوريات:

1- جهاد فاضل، عروبة ابن حزم، مجلة العربي، العدد673 ، ديسمبر2014م.
2- أبو عبد الرحمن بن عقيل، مجلة الفيصل، العدد26 ، شعبان،1399 هـ، يوليو 1979م.
3- الناصر الكتاني، ابن حزم الإسباني أو الفارسي، مجلة اللسان العربي، الرباط، العدد الرابع، 1964م.